الفصل الرابع

عصر السيادة المغربية «المرابطين والموحدين»

«479 – 612هـ / 1086 – 1215م»

1-قيام دولة المرابطين في المغرب الأقصى وتأسيسها.

أ-أصل المرابطين:

ب-رباط عبد الله بن ياسين.

2-المرابطون في الأندلس:

-أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين.

ب-موقعة الزلاقة.

ج-تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس.

د-نهاية المرابطين في الأندلس.

3-قيام دولة الموحدين بالمغرب الأقصى:

أ- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين.

ب-أشتباكات ابن تومرت مع المرابطين.

* مذبحة التميز.

* هزيمة البحيرة ووفاة ابن تومرت.

4-الموحدون وفتح الأندلس.

5-جهود الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس.

أ-جواز الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس.

ب-معركة فحص الجلاب.

ج-حملة الخليفة الثانية إلى الأندلس.

الفصل الرابع

د-غزوة شنترين.

6-حروب أبو يوسف يعقوب المنصور بالأندلس.

أ-غزوة مَدينة شلب.

ب-عزوة قصر الفتح (أبي دانس).

ج-معركة الأراك.

د-غزوة طليطلة.

7-جهاد الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر في الأندلس (595-610هـ / 1199 – 1213م).

أ-موقعة شلبطرة.

ب-موقعة العقاب.

* وقائع الموقعة.

8-خلافة يوسف بن محمد الناصر بالمستنصر (وانهيار الدولة الموحدية) (610-620هـ/ 1213 – 1223م).

1-قيام دولة المرابطين في المغرب الأقصى وتأسيسها:

أ- أصل المرابطين:

عندما أعلن المعز بن باديس الانفصال عن الدولة الفاطمية سياسياً ومذهباً[1] أخذ المغرب الإسلامي الاعتماد على نفسه، في حين أفريقيا كانت في صراع دائماً مع بن سليم وعرب بن هلال[2]، والنورمان الغازين لسواحلها[3]، فكانت هناك قوة جديدة انبثقت في أقصى جنوب المغرب الأقصى تولدت منها دولة المرابطين الكبرى حيث شملت النصف الغربي من بلاد المغرب وأنقذت الإسلام الذي كانت تهدده المسيحية بأسبانيا، ودام حكمها نحو مائة عام من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجري[4].

ففي الوقت الذي قدمت فيه حشود القبائل العربية من مصر تدمر في طريقها عمران طرابلس وإفريقية، وتقضي على معالم الحضارة في هذه البلاد[5]، خرجت قبيلة لمتونه الصنهاجية من جوف الصحراء، واستقرت في المغرب الأقصى حيث أسس دولة كبرى هي دولة المرابطين[6].

فأصل المرابطين من صنهاجه الجنوب الضاربة في الصحراء، الظروف أرغمت قبائلها: لمتونة وجدالة ومسوفة على التحالف وتولت لمتونه رئاستهم وكان هذا الحلف يسيطر على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت[7] الواقعة إلى الشمال الشرقي في تمبكتو شمالي نهر النيجر، وكان رئيس القبائل الصنهاجية في أوائل القرن الخامس الهجري هو محمد بن نيفات اللمطي، حيث كان من أهل الفضل والدين والجهاد، واستشهد في واقعة بين قومة وبين أهل السودان[8].

وعندما توفى انتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة حيث كانت أقدر على محاربة السودان لأن ديارها كانت أقرب إلى ديار السودان. فقد تولى أمر صنهاجة يحيى بن إبراهيم الدالي الذي سعى إلى طلب العلم وتعلم أصول الدين الإسلامي في مدارس القيروان وفاس وللاستزادة من العلوم الدينية ، فخرج من بلاده للحج في سنة 427هـ / 1030م بعد أن استخلف علي القبيلة ولده يحيى، ثم أرتاد المراكز الثقافية في المغرب بحثاً عن فقيه يوجه قومه توجيهاً دينياً سليماً، ولما عاد سنة 428هـ/1036م ونزول بالقيروان قاعدة مذهب المالكية في المغرب، فقد نبذت المذهب الشيعي وعادت إلى السنية، فاتيح ليحيى سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين وهو الفقيه أبو عمران موسى بن الحاج الغفجومي فاس[9]

الفصل الرابع

وقد تأثر بتعاليمه وفقه وفصاحته في الدين فطلب منه إرسال من يثق فيه من طلبته لقبيلته لهدايتهم وتبصيرهم، فقبل ووجه دعوته لطلبته ولكنهم رفضوا لبعد مواطن لمتونه عن بلادهم، وكان من بين طلبته ابن عمران فقيه بربري يكرس حياته لهذه الرسالة هو وجاج بن زللو اللمطي[10] ويسميه ابن خلدون محمد وكاك ابن زللو اللمطي[11] فكان مقيماً برباط أقامه ببلدة نفيس من بلاد السوس(3)، أنتدب ليحيى بن إبراهيم طالبا صنهاجي الأصل من جزولة، من أهل الدين والفقه والتقوى، يعرف باسم عبد الله بن ياسين الجزولي[12]، ولم يتردد ابن ياسين في قبول المهمة فأعتبرها من صميم رسالته في الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة في النواحي التي حرمت من نعمة المعرفة والعلم .

وذهب يحيى بن إبراهيم أمير جداله يصحبه ابن ياسين إلى لمتونه، فأعجب شيوخها واحتفلوا به وأقبل للسماع والتحصيل، وشرع عبد الله بن ياسين في تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه ، ثم عمد إلى تقويم أخلاقهم وتطبيق حدود الشريعة، وتغيير المنكر، ومقاومة شهوات النفس ، فزهد الناس بهذه الأحكام والحدود وبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحذورات[13] التي ألفوه من قبل في أعمال السلب والنهب وكانوا يجدوا رهبة في زعيمهم يحيى بن إبراهيم بن إبراهيم ، فلما توفى لم يستطيع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجه من الاعتزال عن ابن ياسين ، وترك الأخذ عنه ، فعزم ابن ياسين على الرحيل .

ب- رباط عبد الله بن ياسين :-

خرج عبد الله بن ياسين قاصداً بلاد السودان ليستطيع أن يؤدي رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللمتونيين الصنهاجية،[14] فرافقه رئيس صنهاجه ورحل معهما أبو بكر بن عمر ، شقيق يحيى بن عمر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها ، فدخلوا في غياضها منفردين برسم الانقطاع للعبادة . وذكر ابن الخطيب أنه صحبهم سبعة رجال من جداله [15] من المحتمل أن هذه الجزيرة التي قصدها ابن ياسين وأتباعه تقع في السنغال الأدنى [16] وهناك أسس أبن ياسين رباطا، والرباط من المرابطة ، أي ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين، من قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [17] .

فالرباط في الأصل هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل استعداد لمقاتلة العدو، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد ، فالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو في الثغور،

وجاء منها تعريف مرابط أي الملازم لثغر العدو وأخذا من قوله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)[19]. فالرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعدادا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية ويسمى من يسكنه مرابطاً [20].

والأربطة كانت من أهم الأعمال التي يقوم بها الأمراء والخلفاء، فكانت الإسكندرية ثغراً من الثغور الإسلامية التي يجاهد فيها المسلمون ، فقد قسم عمرو بن العاص أجناده لقسمين، قسم في الفسطاط وقسم جزاءه إلى جزأين، جزء لرباط الإسكندرية وحدها، وجزء لسائر السواحل وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية[21] وأهتم عثمان بن عفان برابطة الإسكندرية، وقد وصف ابن رسته رابطات الإسكندرية فقال (بالإسكندريه رابطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها تسمى المحارس)[22] كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحارس والأربطة المشحونة بالمقاتلة ، وكان معاوية يوجه لهذه الأربطة جماعات كثيفة من الجند يشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار الروم من جهة البحر. [23] ولقد اهتم العباسيون ببناء الأربطة على سواحل المغرب اهتماماً كبيراً.

سمع كثير من الصالحين والراغبين في تحصيل العلوم الدينية عن عبد الله بن ياسين فارتفقوا به، وأخذوا عنه، فلم يمضي كثيراً حتى كان رباط ابن ياسين يضم ألف رجل اخلصوا له وأطاعوه طاعة عمياء، وعرفوا بالمرابطين، نسبة إلى رباط ابن ياسين، فحولهم من رعاة جمال إلي طبقة من المجاهدين [24] فهم أهل الرباط الذين اخذوا على أنفسهم منذ انضمامهم لابن ياسين التفاني في سبيل النهي عن المنكر ، وقد قيل أنهم سموا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم[25] وعرفوا أيضا بالملثمين ، لاتخاذهم لثاما داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجوههم مثل ما يفعله الطوارق اليوم، وعرفوا أيضا باللمتونيين، نسبة إلى قبيلة لمتونه التي كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجه الممتدة في رمال الصحراء جنوبي جبال درن[26].

إن تعاليم المرابطين تشبه كثيرا تعاليم الخوارج الاباضيه، لأن ابن ياسين كان يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة، فقد استطاع في وقت وجيز

الفصل الرابع

تأليف جيشا محاربا جعل لقيادته صاحبه يحيى بن عمر، حيث كان يحيى مخلصا لدعوته متفانيا في الطاعة له، وبذلك شرع في نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجه.

ج- انطلاق المرابطين إلى المغرب الأقصى :-

عندما أكتمل عدد أتباع ابن ياسين ألفا جمعهم وقال: " إن ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك" وكان ابن ياسين يأمر أتباعه بجهاد من خالفهم من قبائل صنهاجه على أن يبثوا الأعذار ولإنذار سبعة أيام ، فلما يئس من إجابتهم، شرع في الغزو، فبدأ بجداله فأوقع فيهم واقعة قتل فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاما حسنا[27]. فخضعت لمتونه ومسوفة وجداله ولمطه وغيرها من قبائل صنهاجه الواقعة في الشمال حتى نهر درعه، وأذعنت صنهاجه لطاعته ، واستقاموا على الإسلام الصحيح ، فسماهم بالمرابطين[28].

بلغ عبد الله بن ياسين ما ناله المسلمين من الظلم والجور على أيدي بني وانودين المغراويين أمراء سجلماسة عن طريق الفقيه وجاج اللمطي وقد حرضهم وجاج على تغيير أمورهم[29] فخرج المرابطون من الصحراء في سنة 445هـ/1053م وفي أعداد ضخمه واتجهوا إلى درعه ، فاصطدموا بجيش مسعود ابن ونودين أمير مغراوة، وصاحب سجلماسة ودرعه ، فانهزم هزيمة نكراء، وقتل في المعركة، ودخل المرابطون سجلماسة وأصلحوا من أحوالها، وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس ، وبعثوا عمالهم على الصدقات.

تدفق المرابطون إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعه الأوسط وتافيللت في موجات كاسحة، إلا أن زناته لم تحتمل غزو صنهاجه، فثارت تافيللت، وخرجت سلجماسة على المرابطين، فأعلن عبد الله ابن ياسين الجهاد، وسار إلى قتال زناته، فقتل قائده يحيى بن عمر في إحدى المعارك سنة 447هـ/ 1055م فخلفه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر، وتداعمت جيوش المرابطين بانضمام جزولة ولمطه، حيث قاتل المرابطون الشيعة الرافضة في تارودانت، وتمكنوا من اقتحامها وبذلك استولوا على السوس بأسرة سنة 448هـ / 1056م وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى واحات درعه فنجح في استردادها فيما بين عامي 448هـ 449هـ/ 1056 ، 1057م وتوغل المرابطون في نفس العام إلى الحوز، واجتازوا أطلس الغربي، واحتلوا بلاد جدميوة، وامتدت فتوحاتهم حتى وادي تنسيفت من بلاد رجراجة[30].

ثم اتجهوا إلى المغرب الجنوبي الشرقي، فدخلوا مدينة أغمات وما يليها سنة 449هـ/1057م وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلا ، وتدفقت جيوشهم على بلاد المصامدة بجبال درن فجاسوا خلالها ، ثم غزوا تادلا ، واشتبكوا مع بني يفرن أصحابها سنة 450هـ / 1058م وقتل في هذه المعارك لقوط بن يوسف صاحب أغمات[31].

ثم دعا المرابطون إلى جهاد برغواطة بتامسنا وأنفا والريف الغربي، واستشهد عبد الله بن ياسين في إحدي المعارك بالقرب من وادي كريفلة سنة 450هـ / 1058م وذكر ابن الخطيب أن ابن ياسين أصيب في هذه المعركة بجرح مميت، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة وقال: "يا معشر المرابطين، أنا ميت في يومي هذا، وأنتم في بلاد أعدائكم فإياكم أن تحنثوا وتفشلوا وتذهب ريحكم، كونوا ألفة على الحق، وإخوانا في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم، يقود جيوشكم، ويغزوا أعداءكم، ويقسم فيكم زكاتكم، وأعشاركم"[32].

ولما توفى ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو، ولكنه توفى بدوره سنة 451هـ / 1059م ولم يخلفه رئيس آخر، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين، وكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف ،ثم بدأ المرابطين يخففون من غلوهم في حركة الإصلاح التي قاموا بها، فتحولت الحركة الدينية تدريجيا إلى حركة سياسية، الغرض منها السيطرة على المغرب.

فنازل أبو بكر بن عمر مدينة لواته وافتتحها سنة 452هـ / 1060م وقتل من كان بها من النظاميين ، ولم تستمر هذه الفتوحات ، فحدث شقاق بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء "حيث أصل أعياصهم ووشائج أعراقهم، ومنيع عددهم"[33] فخشي أبو بكر أن تفترق كلمتهم وتتشتت جموعهم، وتتصدع صفوفهم، فرأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بينهم، وعهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين في المغرب، وفوض إليه قتال زناته، ثم مضى إلى الصحراء.

2 - المرابطون في الأندلس:

أ- أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين :

الفصل الرابع

بعد أن وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب، وأقام دولة قوية تضم أقاليم القسم الغربي من المغرب لم يحاول أن يتلقب بالخلافة، واكتفى بلقب أمير المسلمين، وناصر الدين سنة 468هـ/ 1075م ودعا للخليفة العباسي ببغداد، ويذكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طلبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال: "حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما تسمى به خلفاء بني العباس، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم"[34] هذا اللقب خلعه يوسف بن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفة العباسي، فلما انتصر يوسف في موقعة الزلاقة، وأسقط ملوك الطوائف، كتب إلى الخليفة المقتدي بالله، يطلب منه الخلع والأعلام والتقليد، فلم يعترض الخليفة على ذلك، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين، وقد استخدم المرابطون لذلك السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم.

وبينما كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة في المغرب كانت الأحداث تتطور تطورا سريعا في الأندلس، فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دويلات للطوائف وإلى ظهور العنصرية الهدامة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبتهم، واستعان بعضهم على بعض، بنصارى الشمال الذين وجدوا في ذلك سيفا مسلطا على الإسلام[35] وفرصة مواتية للقضاء عليهم، فاستغل فرناندو الأول ملك قشتاله وليون هذه الفرصة 427 - 458هـ/ 1035 – 1065م واستولى على عدد من مدن الأندلس مثل بازو، وقلمرية، وأرغم ملوك الطوائف على شراء حمايته للاحتفاظ بعروشهم، فلاذوا بالجزية يدفعونها إليه، اتقاء لشره، ودرءاً لتهديداته، ورغبة في خطب سلمه ومرضاته، كما كانت وطأة ابنه الفونسو السادس أشد على المسلمين من وطأة أبيه فقد رأي أن يسدد الضربة الأولى في طليطلة، قلب الأندلس، فأخذ يعد العدة، للاستيلاء عليها، ويتأهب لتحقيق هذا الهدف منذ سنة 471هـ/ 1078م وتمكن أخيرا من تحقيق أمنيته في سنة 478هـ/ 1085م ، وازداد بذلك قوة على قوته (وأخذ يجوس خلال الديار، ويستفتح المعاقل والحصون)[36] .

وأحدث سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين دويا هائلا في المغرب والأندلس على السواء، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الإسلام في الأندلس بسوء المصير، فأحسوا بضعفهم، وتنبهوا بعد فوات الأوان إلى نهايتهم المشيكة، وكان سقوط طليطلة نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الإسلام في الأندلس استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها ،

وعرض رعيته عليه أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط فعزم على ذلك حتى يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة[37] واعتبر طليطلة نقطة دائرة الأندلس . وعمد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض الاتاوات والجزية عليهم، حيث بدأ بالمعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف، فكتب إليه تسليم بعض حصونه وأعماله فقال: (من الأنبطور ذي الملتين، الملك المفضل الأدفنش ابن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره، مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشير شرفته العنا، وثبت في المنى، فاهتز اهتزاز الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما صار بأهلها حين حاصرها بمن صار في هذه السنين..."[38].

فلما رأى ابن عباد ما رآه من إدبار أمره ، وما يجثما على دولة الإسلام في الأندلس من أخطار، شاور خاصته، ووجوه دولته في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين، على القشتاليين، فأشاروا بعقد السلم مع ألفونسو على ما يشتهيه من شروط إذ كانوا يخافون من يوسف بن تاشفين أن يسلبهم ملكهم، ويشتت شملهم وحذروه من مغبة الاستنجاد بيوسف وقالوا له: (الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد)[39] ثم اختلى المعتمد بابنه وولى عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله وأشار عليه بقرب العدو اللعين ألفونسو وعليه الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لأنه لا قدرة له على ذلك ولكن ابنه رفض لخوفه من سلب ملكهم ولكن والده أقنعه بعدم ترك الأندلس للنصارى فوافقه ابنه فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في غرة جمادي الأول سنة 478هـ/ 1085م ويستصرخه على ألفونسو، فاستشار بن تاشفين كاتبه عبد الرحمن بن أسباط في هذا الشأن، وكان أندلسيا من أهل المدية، فأشار عليه بأن يشترط على ابن عباد أن يتخلى له عن الجزيرة الخضراء ليجعلها قاعدة لإنزال قواته، فوافق ابن عباد وانتقل إلى المغرب في أسطول الأندلس في سنة 478هـ / 1085م واستخلف ولده الرشيد على اشبيلية وكتب لابن تاشفين عقدا يقضي بتسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين في ربيع الأول سنة 479هـ 1086م[40].

وعاد ابن عباد إلى اشبيلية، وأخذ يوسف يستنفر جيوشه، فاجتمع له نحو 7 ألاف فارس عبر بهم البحر إلى الجزيرة الخضراء ولما بلغ الخبر إلى ألفونسو وتمرد المعتمد بن عباد عليه في دفع الجزية، فكتب إلى يوسف عن ضعف أهل الأندلس وذلتهم فعليك نصرتهم فإن غلبتني كان ملك الأندلس والمغرب إليك وإن

الفصل الرابع

غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك، فكتب إليه يوسف على ظهر كتابه الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى)[41].

ب- موقعة الزلاقة:-

أجاز المرابطون البحر إلى الجزيرة الخضراء ، وتلقاهم المعتمد أحسن لقاء، واستقبل المعتمد أميرهم يوسف بن تاشفين في وجوه أهل دولته، وقدم إليه الهدايا والتحف، ولما دعاه للنزول إلى اشبيلية للراحة من الرحلة، لم يبد ابن تاشفين قبولا، ولم يرحب بهذه الدعوة وقال: (إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه)[42] ثم أخذت قوات المرابطين تتقدم نحو اشبيلية، وكان يقودها من قوادهم الكبار سليمان بن داود بن عائشة، وانضمت إليها قوات المعتمد وبعض قوات بعثها ابن صمادح صاحب المرية، وساهم في هذا الجيش الإسلامي المؤتلف عبد الله بن بلكين صاحب غرناطه وأخوة تميم صاحب مالقة وابن ذي النون وبلغ ألفونسو السادس، وهو مقيم على حصار سرقسطة تحرك القوات المغربية الأندلسية نحو اشبيلية[43].

فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية ، ويستنجد بأسم المسيحية ، فوفدت إليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجويانه ، وبرجونيه ، وبروفانس ، وقد عقدت آمالا كبيره في الظفر. وتحالف الفونسو مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب بنبلونه ، والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولا بمحاصرة طرطوشة بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسية ، فانضما إلى الفونسو السادس بجميع قواتهما، أما الفونسو فقد حشد قوات هائلة من جليقية وليون، وبسكونيه، وأرشتوريش وقشتالة[44] وكانت قوات المرابطين قد وصلت إلى اشبيلية، وأقامت بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت إلى بطليوس فلقيهم المتوكل بن الأفطس بالقرب من بطليوس واحتفل لهم بالتضييف والعلف [45].

وعسكرت قوات المسلمين شمالي بطليوس، بين بطليوس وقورية، أي بين ضفتي وادي انه ووادي تاجه ، وتحركت قوات الفونسو متجهة نحو بطليوس[46] حتى وصلت على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ، وضربت مخيماتها في فحص الزلاقة حيث قامت المعركة الكبرى الحاسمة بين جيوش الإسلام والمسيحية، وكانت معسكرات أهل الأندلس قد ضربت بإزاء محلات النصارى، بينما عسكرت قوات يوسف وراءهم على أميال منهم . وفي ليلة 12 رجب سنة 479هـ / 1086م باغتت قوات الفونسو معسكرات أهل الأندلس، فانهزمت عند

أول لقاء، ودارت عليهم الدائرة، وأبلى ابن عياد بالرغم من ذلك بلاء حسنا، ثم أرسل كاتبه ابن القصيره إلى يوسف بن تاشفين، فركب يوسف من فوره على رأس قواته، وقصد محلة الفونسو (فاقتحمها وأضرمها نارا، وضرب طبوله، فاهتزت لها الأرض، وتجاوبت الآفاق، فارتاعت قلوبهم، وتخلخلت أفئدتهم، ورأوا النار تشعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم، فسقط في أيدهم فألووا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان، واختلط الملتان، واشتدت الكرة، وعظمت الهجمات، والحرب تدور على اللعين، وتطحن رؤوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال والترحيل على ظهور الخيل، ودخول المعترك، فأمن الله المسلمين، وقذف الرعب في قلوب المشركين، وتحطوا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن تاشفين)[48].

أرسل يوسف فرقة العبيد للمساهمة في القتال ، فدخلوا ساحة المعركة بالمزارق وانقضوا على قوات الفونسو ، فدارت الدائرة عليه وعلى أصحابه ، وجرح الفونسو جرحا بالغا ، إذ لصق به عبد أسود طعنه في فخذه بخنجر ، ففر الفونسو في جنح الظلام ، ولاذ هو وفلول جيشه بربوة ، ثم تسللوا هاربين إلى طليطلة . وعلى أثر انتصار المسلمين ، قفل يوسف ابن تاشفين إلى المغرب ، إذ ورد عليه الخبر بموت ابنه أبي بكر [49] فترك لسير بن أبي بكر مهمة مواصلة الجهاد ، وهكذا محت قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين العار الذي لحق ملوك الأندلس من مذلة الفونسو السادس لهم .

لقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي :-

1. حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالأندلس .
2. أحدث تغييرا مفاجئا في مجرى حركة الاسترداد التي خططها الفونسو السادس ، فقد أرسل الفونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالبا العون من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم حالة في عدم مساعدتهم له يحالف المسلمين ، فأخذ الفرنسيون يتنافسون في تنظيم حملة كبيرة، ولكن الفونسو عدل عن خطته في الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يعقد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش . فأرسل الفونسو يستغنى عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد . غير أن الوافدين منهم دخلوا في خدمة سانشو

راميرث ملك أرغون ، وهاجموا تطيله في شتاء سنة 480هـ/1087م ، وفشلوا في هذا الهجوم ثم تراجعوا.

3. صالح الفونسو السادس قائده السيد الكنبيطور بعد أن أحتاج إلى سيفه ، وأستقبله في طليطلة في هذا العام[50].

4. رفع من شأن المرابطين أمام الرأي العالم الإسلامي ، وصورهم في صورة المجاهدين عن الإسلام ، المدافعين عن أراضيه ، الزايين عن ثغوره

5. أسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعيتهم ، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف ، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب .

ج- تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس :-

جاء انتصار المسلمين في الزلاقة بعد سلسلة من الهزائم المتتالية على أيدي القشتاليين ، لذلك بالغ المسلمون في تقديره، وقارنوه بأيام الإسلام الكبرى، ويعبر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله: (وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية، فيا له من فتح ، ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه، فيم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد ذلاقتها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس واعتز بها رؤوس الأندلس.....)[51].

ولكن موقعة الزلاقة لم تكن سوى صدمة أصابت القشتاليين لزمن قصير، ثم أخذوا يفيقون منها، فأن هزيمتهم لم تكن عن ضعف وتخاذل، وإنما ترجع إلى غرور الفونسو بنفسه، واعتزازه بقوته وسوء تصرفه. فلم يكد يمضي عام واحد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قواه، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس إذ أن غربها كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا اشبيلية وبطليوس، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، تركها يوسف بن تاشفين تحت تصرف المعتمد بن عباد. أما الشرق فعلى الضد من ذلك كان ممزقا من الناحية السياسية[52] بالإضافة إلى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت إليه بعد[53].

فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنبيطور (صاحب الفحص) في طليطلة في ربيع سنة 480هـ / 1087م ، فعفا عنه بعد 16 سنة قضاها السيد

في خدمة ملوك سرقسطة: المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (438 – 474هـ) (1046 – 1081م)، وابنه المؤتمن يوسف بن أحمد (474 – 478هـ) (1081 – 1085م) ثم ابنه أحمد المستعين الثاني (478 – 503هـ) (1085 – 1109م) ضد القطلانيين حينا والأرغونيين حينا والقشتاليين حينا آخر [54] ثم منحه إقطاعات واسعة، منها حصنا غرماج الأموي ودونياس، وفي العام التالي اتجه الكنبيطور إلى سرقسطة عند أصحابه بني هود، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التي رسمها مع سيده لضم شرق الأندلس، وبالذات مدينة بلنسية[55] ومنها قام غرسية خيمنث قائد حصن لبيط لشن غاراته المدمرة على إمارات المرية ومرسية ولورقه، فنشر الخراب في هذه المناطق وحول أراضيها إلى صحاري قاحلة ، ونتج عن هذه الغارات المتواصلة أن أصبحت إمارتي مرسية ولورقة مهددتان بغزو قشتالي محتوم[56] .

وافتقد أهل الأندلس الأمن والسلام، وساء الموقف في الأندلس من جديد، ولم يكن قد مضى على انتصار المسلمين في الزلاقة عامان . فضج المسلمون بالشكوى، واستصرخوا المرابطين للمرة الثانية، فوفدت على يوسف بن تاشفين بحاضرته مراكش جملة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من قوات الكنبيطور، كما شكوا له ما حل بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من غارات حامية لبيط القشتالية[57]. ثم قدم إليه المعتمد بن عباد، فتلقاه ابن تاشفين أحسن قبول في موضع بوادي سبو. وكان مجيئه لغرضين: الأول استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق، والثاني وضع حد لغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه في شرق الأندلس، وعظم له شأن لبيط وأنه في قلب البلد، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده [58].

ولم يجد يوسف بن تاشفين بدا من استجابة رغبات أهل الأندلس، في مقاتلة للقشتاليين ، فعبر الزقاق للمرة الثانية ، وتوافدت إليه جيوش الأندلس ، ممثلة

الفصل الرابع

لكل دويلات الطوائف ولكن حصار المسلمين للحصن ، رغم طول أمده ، انتهى بالفشل ، لشدة مقاومة الحامية القشتالية ، ولحصانة الحصن ومناعته واستعصاء نقابه ، ولاختلاف كلمة المسلمين ، فقد شكا المعتمد بن عباد ابن رشيق صاحب مرسية ، الثائر بها عليه ، إلى يوسف بن تاشفين ، وذكر اعتداءه عليه، كما اختلف ابن صمادح مع ابن عباد ، وأخذ ملوك الطوائف يتراشقون التهم أمام ابن تاشفين ، ويحكمونه في منازعاتهم ، حتى ضاق بذلك ، وكان الحصار قد طال، وتأهب الفونسو للزحف بجيشه لنجدة حامية لبيط ، كل هذه الأسباب حملت يوسف على رفع الحصار، والعودة إلى حاضرته مراكش عن طريق المرية، ثم بلغ ابن تاشفين وهو بحاضرته في المغرب أن الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة اتفق مع البرهانش وكيل الفونسو السادس في جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته نظير 30 ألـــف دينار وكان ابن رشيق قد ثبت تعاونه مع النصـارى أثناء قيام المسلـمين بحصـــار حصـن لبيط [59].

لذلك عزم ابن تاشفين عزما صادقا على استئصال شفة ملوك الطوائف ، والإطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لا ينبغي لهم قتال الروم ، ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسي عليهم معهم[60] فخرج إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة 483هـ / 1090م وهو ينوي هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ونفاه إلى مكناسة[61] . ثم أردفه بأخيه تميم صاحب مالقة . وفي سنة 484هـ / 1091م أرسل أربعة جيوش مرابطيه إلى الأندلس لمناورة ملوك الطوائف وحصارهم في بلادهم ، فعهد إلى ابن عمه الأمير سير بن أبي بكر بمحاصرة اشبيلية ودخولها والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسير إلى المغرب ، كما عهد إليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة المتوكل

على الله عمر بن المظفر بن الأفطس ، وقد نفذ سير أمر يوسف ، فدخل المرابطون اشبيلية وسيق المعتمد أسيرا إلى أغمات حيث توفى سنة 488هـ / 1095م أما المتوكل فقد كان مصيره أسوأ من ذلك ، إذ قتل هو وابناه في أواخر سنة 488هـ / 1095م [62] .

وكذلك عهد يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن الحاج بفتح قرطبة، وإلى أبي زكريا بن واسنو بفتح المرية، وإلى حرور الحبشي بفتح رندة ، وإلى داود بن عائشة بفتح السهلة والبونت ومرسية . وقد علل يوسف بن تاشفين إسقاطه لملوك الطوائف بقوله : (إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلائهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم، وإهمالهم للغزو، وتواكلهم ، وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ؛ وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدهن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولإملائها عليهم – يعني الروم – خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس بروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجديه، أو صريخ يلبي دعوته....)[63] .

ولم يستثني من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحمد بن هود صاحب سرقسطة فقد كان لا ينازعه ما في يده، ولا تطرق لخلعه، قبولا منه للعفو، وإقرارا فيما بينه وبين العدو ، لما تجده مضايقته من تصبير ما بيده إلى الروم فكان يلاطفه، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك في صحبة وزيريه أبي الأصبغ وأبي عامر فقام بحقه، وصرفه مكرما، واصحبه كتابه[64]. وكان بن هود، قد كتب إليه قائلا (نحن بينكم وبين العدو سد، لا يصل إليه ضرر، ومطاعين قطوف، وقد قنعنا بمسالمتكم)[65]. فرد عليه يوسف بن تاشفين رسالة ذكر ابن الخطيب نصها الكامل[66] .

الفصل الرابع

ونعتقد أن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام في الأندلس ، بعد أن ساء الوضع كثيرا عقب مقتل القادر بن ذي النون في بلنسية في 13 رمضان سنة 485هـ / 1092م وما تلا ذلك من أحداث خطيرة حملت السيد الكنبيطور على حصار بلنسية ودخولها في جمادي الأولى من سنة 487هـ / 1094م ولا يستبعد أن يكون المستعين بالله ويوسف بن تاشفين ، قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ويذكر انه قد يكون من بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين بالله على استرجاع أراضي طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي ، وضمها إلى مملكة سرقسطة لتكوين جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونية وأرغون التوسعية، ومن المرجح أن تكون هذه السفارة المودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة المرابطي من التغلب على مرسية ودانية في الوقت الذي كان السيد فيه يضيق الخناق حول بلنسية في أواخر سنة (486 – 487هـ/1093م)[67] .

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين ففي سنة 496هـ/1102م قدم ابن تاشفين إلى قرطبة ، فأرسل إليه المستعين بالله ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة بهدية جليلة من جملتها 14 ربعا من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود [68] . وظلت هذه العلاقات الودية قائمة في حياة المستعين ، إلى أن استولى المرابطون على سرقسطة في عهد عبد الملك عماد الدولة في 10 من ذي القعدة سنة 503هـ/1102م. وبقى في قصره متطلعاً إلى استرجاع سرقسطة بأي وسيلة [69].

د- نهاية المرابطين في الأندلس :-

لما توفى يوسف ابن تاشفين تولى الأمر من بعده ابنه علي بن يوسف (500 – 533هـ / 1106 – 1138م)، الذي ترسم خطى والده في الجهاد، ومدافعة النصارى وحماية البلاد، فقد كان من أهم صفاته الورع والزهد والغيرة الشديدة على الإسلام، وجمع حوله نخبة ممتازة من العلماء ورجال الدين، أولئك الذين سيطروا على شئون الدولة، إلا أن خليفة المرابطين هذا بميله الشديد إلى

علوم الدين نراه من الجانب الآخر يهمل أمور مملكته، ويتراخى في إدارتها، الأمر الذي كان لابد معه من اختلال أحوالها وفقدان عوامل الاستقرار والأمان[70].

وفي جانب القطر الأندلسي من مملكة المرابطين كان من الممكن أن تظل سيوفهم وسواعدهم قوية، لو أنهم حافظوا على مبادئهم من الزهد والتقشف، والبعد عن ملذات الحياة، لكنهم استغرقوا في الترف واستناموا إلى اللذة واللهو، ونسوا طبائع الجندية التي فطروا عليها، وخاصة جنودهم الذين انحدروا مع اللذات والشهوات، في وقت وجيز لم يتجاوز العشرين عاما، حتى صار جيشهم لا يعول عليه في صد غارات النصارى، بعد أن أدمن هذا الجيش تعاطي الخمور ، فضيعوا شبابهم ، وانحطت همهم، وبلغ بهم الحال أن أصبحوا خطراً على أمن الدولة نفسها ، إذ قطعوا الطرق على المسافرين، وانتهزوا كل فرصة للسلب والنهب!![71].

أما من جهة حكامهم وولاتهم، فقد كانوا القدوة السيئة في هذا المجال، من الانغماس في الترف والنعيم، بل ووقعوا تحت سيطرة العواهر من النساء، وأصحاب الأطماع الشخصية من الأعيان والفقهاء. والعجيب في الأمر أن مثل هذه الأوضاع التي أصابت المرابطين في الأندلس، والتي كان لها تأثيرها السيئ على الرعية قد حدث مثلها لهم في أفريقيا، الأمر الذي كان يؤذن بأفول نجم هذه الدولة هنا وهناك، مع ما كان من استئناف النصارى لهجماتهم على المدن الأندلسية، وامتدت تلك الهجمات في نواحي شتى، حتى وصلت إلى جبل طارق في الجنوب، وحينئذ كان لا مناص من أن يشق الأندلسيين عصا الطاعة على المرابطين، وأن يثور عليهم، ويطردوا عمالهم، وأن يجلوهم عن بلادهم[72].

وهكذا عادت الأندلس إلى مثل حالتها من التمزق الذي عانته أيام ملوك الطوائف، ومن التنافس بين أفراد ظهروا على مسرح السياسة الأندلسية، مثل أبي محمد سداري، ويوسف البطروجي الثائر بمدينة لبله، ولبيد بن عبد الله صاحب شنترين، وعلي بن عيسى بن ميمون صاحب قادس، والقاضي ابن حميدين بقرطبة، ومحمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس، والقاضي ابن الحكم بن حسون بمالقة، وابن مردنيش بشرق الأندلس وغيرهم[73].

وهؤلاء بعضهم من البربر، والبعض الآخر من الأندلسيين، ولكن هؤلاء وأمثالهم قد تشتتوا وأصبحوا طعما للنصارى ولكن حينما بايع أهل الأندلس عبد

الفصل الرابع

المؤمن بن علي ، خليفة المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب التي أطاحت بدولة المرابطين ، فضم هؤلاء الأندلس إلى مملكتهم الجديدة حينما جاز عبد المؤمن الموحدي إلى الأندلس عام(555هـ /1160م)، وضمت جيوشه الجزيرة الخضراء ورندة واشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة إلى سلطانه، ولم تمضي سنوات حتى صار الأندلس كله إلى حوزته، وضمن مملكته، متخذا من اشبيلية عاصمة للموحدين[74] .

3- قيام دولة الموحدين بالمغرب :

أ- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن علي سراج الموحدين :

هو محمد بن عبد الله بن تومرت[75] من أهل السوس، وهي بلاد يسكنها بربر جفاة متقشفون في حياتهم، خشنون في مظهرهم، تغلب على طباعهم السذاجة، وقوة الإيمان، والاعتقاد في القوى الخفية، وقل منهم من كان يرتفع في علمه إلى مستوى العلم الإسلامي الحق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذو العلم بها، ويستحيل إلى آلة تسرد وتردد، وإلى عالم يلتزم في تفسيره للآيات النص الحرفي [76].

ولد ابن تومرت في عام 485هـ/1029م في ضيعة من بلاد السوس تعرف بايجيليز[77] من قرى هرغة الواقعة على سفح جبل إيجيليز، من قوم شرفاء حيث كان أبوه أمغار القبيلة أي شيخها، فقضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن في كتاب القرية فلما أصبح شابا يافعا، واشتد عوده ، دفعه طموحه للرحل عن القبيلة للدراسة والتحصيل في المشرق الإسلامي مصدر العلوم ومنبع الحضارات ومهد الحضارات فخرج في طلب العلم من قبيلته عام501هـ/1107م وانتهى إلى بغداد، والتقى بأبا بكر الشاش ، وأخذ عنه شيئا من أصول الدين، والحديث عن المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين ، وقيل أنه لقي أبا حامد الغزالي في الشام[78] .

وقد علم الغزالي بما فعله المرابطون بكتبه حين وصلت المغرب، فقاموا بإحراقها وإفسادها ، فعلق قائلاً وكان ابن تومرت موجد في مجلسه " ليذهبن على قليل ملكة [ملك علي بن يوسف]، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا"[79] . أحس ابن تومرت أنه يقصده بهذه العبارة، وأن تمزيق دولة المرابطين ستكون على يديه.

أخذ ابن تومرت يجوب بعواصم المشرق الإسلامي حيث قضى ما يقرب من 11 سنة، ثم عزم العودة إلى بلاده، وهو في طريق عودته مر بمصر وقضى بها بعض الوقت في عهد الآمر بأحكام الله الفاطمي، وكانت الإسكندرية مزدهرة في هذا الوقت بالحياة العلمية حيث استوطنها جلة من العلماء كان لهم أكبر الأثر في نهضتها العلمية ، فمنهم فقيه الإسكندرية محمد بن ميسر، والفقيه عبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف، والإمام ابوبكر الطرطوشي، والحافظ المقدسي[80] . وكان المهدي ابن تومرت ساخطا على مظاهر الترف التي وجدها في أهل الإسكندرية، فأحس إن عليه رسالة لابد أن يقوم بتحقيقها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأقضت به تعاليمه هناك إلى نفيه من المدينة[81] .

فرحل إلى المغرب بالسفينة، فبدأ في وعظ الركاب والمسافرين ، واستنكار أعمالهم، فضاقوا بتعاليمه فألقوه في البحر فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء البحر لم يصبه شئ، فلما رأوا ذلك من أمره، أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل بجاية من بلاد المغرب [82] ، فنزل بضيعة يقال لها ملالة، هناك أقام مسجداً وأقبل عليه الطلبة من كل مكان، وكان يقضي يومه في العبادة والتدريس لطلبته ، وفي يوم ظهر عبد المؤمن بن علي الكومي[83] الذي سيصبح خليفة الموحدين ، حيث كان متوجها إلى المشرق لطلب العلم ، ولما رآه ابن تومرت قرأ على وجهه علامات الذكاء والنبوغ والمعرفة وظل ينتقل ابن تومرت من بلد إلى آخر حتى وصل إلى مسقط رأسه قريته إيجيليز ونزل داره عام 514هـ/1120م[84]، وأقام رابطة للعبادة في عام 515هـ / 1121م وأجتمع إليه الطلبة والقبائل[85].

ب- اشتباكات ابن تومرت مع المرابطين :-

كثر أتباع ابن تومرت من سائر قبائل المغرب الأقصى، ولقب بالمهدي المعصوم، وسمي أصحابه بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام في المغرب، وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوي من قبائل المغرب على رأس هذه القبائل قبيلة المصامدة، ثم غزا المرابطين الموحدون المتحصنون بجبل هرغه[86] وانتصر الموحدون واعتبروا هذا الانتصار كرامه من كرامات ابن تومرت وزاد أيمانهم به[87] .

●مذبحة التميز:-

الفصل الرابع

ولهذا النصر دور كبير في تجمع قبيلة هرغه المصمودية وأخلاط أخرى بتينملل وأقاموا حولها وهذه الجموع لا يطمئن إليها ابن تومرت خاصة وأنه ينتمي إلى قبيلة صغيرة هي هرغة، لا تستطيع حمايته إذا تهدده خطر، ثم إن تينملل جمعت ناساً كثيرين من قبائل شتى بعضهم يعرفهم وبعضهم لا يعرفهم فأراد التخلص ممن لا يطمئن إليه من هؤلاء ، لذلك سوف يقوم بعمل يضفي عليه طابعاً دينياً بأن يطلب من أبا محمد بن عبد الله بن محسن الونشريسي الملقب بالبشير، وكان أصله من طلبة العلم الذين انضموا لابن تومرت، وكان من العشرة حافظا للقرآن الكريم ويعرف شيئاً من العلم ويحسن ركوب الخيل، ولكنه منذ انضم إلى جماعة ابن تومرت أنصرف إلى خدمته، ولم يظهر عليه شئ من العلم، ويبدو كذلك أنه كان فيه شئ من الجدب يستبعد معه أن يعده الناس من أهل العلم وجرى الأمر على ذلك حتى إذا خطرت فكرة التميز ببال ابن تومرت استدعاه وأمره في السر بأن يراجع القرآن والعلم ويستدرك ما فاته ويتدرب على ركوب الخيل، فلما فعل الرجل ذلك واطمأن إليه ابن تومرت ناداه يوماً على ملأ من الناس وسألهم عنه، فلم يقل أحد منهم أنه من أهل العلم أو الركوب، فقال لهم ابن تومرت ما معناه إن الله ألقى في صدره العلم وعلمه ركوب الخيل وقال " قد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم وهو آية من آيات الله تعالى، في هذا الأمر " ثم طلب إليهم أن يمتحنوه ففعلوا فإذا هو يحفظ القرآن وشيئاً[88] من العلم، ثم رأوه يركب فرساً ويجري به جري من يحسن الركوب والطرد، فبهتوا لمذاجتهم، وآمنوا بأن هذه كرامة من كرامات ابن تومرت.

فلما رأي تصديقهم له وخوفهم منه قال إن البشير سيقوم بتميز المؤمنين من غير المؤمنين وتلا عليهم قوله تعالى: (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)[89]، وختم كلامه قائلا وقد صحبنا أقوام أطلعه الله تعالى على ما في نفوسهم من النفاق، ولابد من النظر في أمورهم حتى يتم المراد من العدل في أحكام هذه البلاد، وظنوا أن الأمر مجرد تنبيه لمن كان ابن تومرت يرى أنهم منافقون حتى يتوبوا لله ولكنهم ما لبثوا أن تبينوا أن المنافقين سيساقون إلى القتل ، ووقف الهنتاتيون إلى جانب ابن تومرت، وأخذت القبائل تمر أمام صاحبنا البشير فيخرج من كل منها قوماً يجعلهم عن يمينه، وآخرين يجعلهم عن يساره، فلما تم الأمر تبين أن أصحاب اليمين هم أصحاب الجنة وأهل اليسار هم

أصحاب النار وأن مصيرهم القتل العاجل ، ثم أمر أهل اليمين من كل قبيلة أن يقتلوا قرابتهم من أهل اليسار ، وهكذا جعل هذا الرجل الناس يقتلون بعضهم بعضاً لكي يطمئن باله ، فأهلك ألوفاً في أيام[90] . تلك فيما نظن فعله لا يقوم عليها إلا رجل مثل ابن تومرت ، متعصب تركبه فكرة تملك عليه نفسه وتميت ضميره، وطامع سياسي مستهين بالدماء[91] .

- **هزيمة البحيرة ووفاة ابن تومرت :-**

بعد مذبحة التميز كون ابن تومرت جيش من المصامدة، ثم غزا القبائل الموالية للمرابطين، وقد انتصر الموحدون في معظمها ففي عام 517هـ/ 1123م استطاع الموحدون بقيادة عبد الرحمن بن زجو في الاستيلاء على قلعة تاسغيموت، وكانت من أعظم قلاع المرابطين، وحملت أبوابها إلى تينملل، وفي عام 518هـ/ 1124م افتتحت بلاد ماغوسة، وهناية على وادي نفيس، وفي عام 521هـ/1127م بعث ابن تومرت عبد المؤمن بن علي إلى جزولة انتصر عليهم[92].

ومنذ عام 524هـ/ 1129م أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين ، حيث خرج جيش الموحدين إلى مراكش في أربعين ألفا ، فعسكروا في حدائق تسمى بحيرة الرقائق أمام باب الدباغين وباب إيلان من أبواب مراكش وحاصروا المدينة مدة أربعين يوماً، حتى وصل القائد المرابطي وانودين بن سير بعسكر سجلماسة ووصل عسكر آخر من القبلة ، ودارت المعركة الحاسمة، فقتل من الموحدون الكثير وتطايرت قواتهم وقتل من أصحاب ابن تومرت الكثير، وأسرع الناجون وعلى رأسهم عبد المؤمن بن علي والمرابطون في أثارهم، فأوقعوا بهم مرة أخرى عند أغمات، ووصل الفارون إلى جبل هزرجة، ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن، فلما وصل الخبر إلى ابن تومرت قال " أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم. قال: لم يفقد أحد، البركة في بقائه وكأنكم بالفتح"[93].

ولكن هذه الهزيمة نغصت نفسه، فلم يعيش بعدها إلا قليلا وتوفى في 14 رمضان 524هـ / أغسطس 1130م واجتمع الخمسة الباقون من العشرة – أهل الحل والعقد عند الموحدين – وأختاروا عبد المؤمن بن علي خليفة لابن تومرت ولقب نفسه بالخليفة وأمير المؤمنين ولكن بيعته العلنية لم تتم إلا عام 535هـ /

الفصل الرابع

1140م أي بعد 5 سنوات من وفاة ابن تومرت ، وقد انفق عبد المؤمن بن علي هذه المدة في جمع صفوف الموحدين وتنظيمهم بمعاونة من بقى من العشرة[94].

4- الموحدون وفتح الأندلس:

قبل جواز عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس ، كان عليه أن ينهي الوجود المرابطي بباقي مدن المغرب الأقصى مثل فاس[95] ومكناس[96] ثم أتجه بعد ذلك إلى العاصمة مراكش فسقطت في يده في 18 شوال 541هـ/ مايو 1147م[97] وما أن انتهى من بعض المشاكل في بلاد المغرب حتى نظر إلى الأندلس بكونها الإرث الهام الذي سيحل فيه محل المرابطين ، وخدمته الظروف بسقوط وهران ثم مصرع تاشفين إلى جانب اتصال العناصر الثائرة بالأندلس بالموحدين خاصة وأن حركة الاسترداد على أشدها بالأندلس، فعبر عدد من الثوار إلى المغرب، وطلبوا من عبد المؤمن المعونة والعون وفي ذلك يقول أبن الخطيب (ولما اضطرب أمر لمتونة بالأندلس، وضعفوا وكثرت الفتن والثورات ، واغتنم العدو ذلك، فاستولى على البلاد، واشتهر ظهور الدولة اللمتونية والطائفة المهدية بالمغرب، وافتتحوا دار الملك بمراكش... تعلقت آمال المسلمين بهم، واستصرخهم الناس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين، سوء جوار وحباً في الإزالة وتبديل الملوك، وقل أن رأوا أيالة أنفع أو أجدى في قتال العدو من لمتونة، فأجابهم صاحب الدعوة عبد المؤمن بن علي(98).

ومن أوائل المتصلين بعبد المؤمن بن علي ، أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون ، وقد قدم علي عبد المؤمن أثناء حصاره لفاس في أوائل عام 540هـ / 1145م وقدم إليه طاعته ، وعاد إلى الأندلس وخطب للموحدين بجامع قادش، فكانت أول خطبة للموحدين بالأندلس[99] . وأثناء حصار مراكش وفد على عبد المؤمن بن علي عدد من زعماء الأندلس منهم أبو الغمر بن عزون زعيم مدينة شريش وأركش ورندة، والقاضي ابن حمدين زعيم مدينة قرطبة المعزول[100] وكذلك وفد زعيم ثورة المريدين أحمد بن قسي[101].

وكان لمقدم هؤلاء الزعماء وطلبهم المعونة من الموحدين للقضاء على المرابطين والنصارى نتائج عملية، ذلك أنه شجع عبد المؤمن بن علي لكي يبادر بالتدخل في حوادث الأندلس، وتجهيز عدة حملات لعبور الأندلس، فأرسل ثلاثة جيوش للموحدين إلى الأندلس عام 541هـ / 1147م لإزالة ما بقى من المرابطين، وللقضاء على الزعامات المحلية التي ظهرت وللحفاظ على كيان

الإسلام في الأندلس، ولحماية المغرب من هجوم مرابطي محتمل[102] ، فلما وصلت الجيوش سيطرت على طريف والجزيرة الخضراء، ثم توسعت نحو الداخل فأعلن أهل شريش ولائهم للموحدين فسموا السابقون الأولون وحررت أملاكهم[103]، وزحفت الجيوش غرباً فسيطرت على لبلة وبطليوس وشلب وباجه وبابرة وأعلن حكامها الولاء للموحدين [104].

اتجه الموحدون إلى اشبيلية صحبة زعماء المريدين الذين انضموا إليهم من الزعماء مثل أحمد بن قسي صاحب شلب، ويوسف البطروجي صاحب لبلة، ولبيد بن عبد الله قائد شنتمرية، وجميع أهل الغرب بعسكرهم ورجالهم[105] ، فاستولوا على طلياطة وحصن القصر، وهما قلعتان لاشبيلية من الغرب، وقد أعلنت كلتاهما الطاعة ثم ضربوا الحصار حول اشبيلية براً وبحراً، ولم يطل أمد الحصار، إذ لم يكن باشبيلية سوى حامية مرابطية قليلة العدد، تدافع في ظروف صعبة، ولم ير المرابطون مناصاً من ترك المدينة ولجئوا إلى حصون قرمونه المنيعة، فملك الموحدون المدينة يوم الأربعاء 12 شعبان 541هـ / 18 يناير 1147م[106].

وسافر وفد من اشبيلية برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي حاملين بيعتهم في شهر ذي الحجة من عام 541هـ/ 1147م[107]، كما استطاعت القوات الموحدية من السيطرة على مدينة قرطبة بعد تعاون حاكمها المرابطي يحيى بن غانية مع الموحدين، فدخلتها القوات الموحدية عام 543هـ/ 1148م [108].

وسرعان ما أعلن ابن غانية الثورة على الموحدين باشبيلية وأرسل قوة من المرابطين أستولت على الجزيرة الخضراء[109] ، إلى جانب ثورات قامت بسبته وتامسنا[110] ، وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين أن الأمر سوف يخرج من أيديهم إذا لم تسحق هذه الثورات بسرعة، وقد نجحوا فعلا في القضاء على الخارجين عليهم وأرغمت القبائل المتمردة على العودة والخضوع بعد ما تعرضوا للذبح والتنكيل[111] ، وبعث عبد المؤمن بجيش موحدي كبير إلى الأندلس جعل على قيادته أبا يعقوب يوسف بن عثمان لإعادة نفوذ الموحدين بها، فاستعادوا الجزيرة الخضراء[112] ، ودخلوا اشبيلية ، وأغار الموحدين بعد استعادتهم اشبيلية على أعمال البطروجي بلبلة ، وطلياطة ، وعلى عمل ابن قسي بشلب ، وعلى طبيرة وأحوازها ، وأطاع عيسى بن ميمون صاحب سنتمرية، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس الذي قدم المعاونة المستمرة،

وبذلك دانت للموحدين منطقة الغرب مرة أخرى[113] وبدأت مرحلة جديدة في سياسة الموحدين تجاه الأندلس وهي الإعداد لضمها إلى حكمهم .

كما استطاعت القوات الموحدية من السيطرة على مدينة قرطبة بعد أن عانت من سوء معاملة عسكر الفونسو الذي دخلها بالقوة ولكن لم يستمر طويلا بها حيث توالت الإمدادات من المغرب وسرعة وصولها إلى القوات الموحدية مفاجأة الفونسو بقرطبة ودخولها بعد أيام قليلة من احتلال النصارى لها ، ولم تمض شهور قليلة حتى استعادوا جيان وبياسة وأبده[114] ، أما مدينة غرناطة آخر معقل للمرابطين في الأندلس ، فقد حاول يحيى بن غانية إقناع حاكمها ميمون بن بدر اللمتوني بالاستسلام للموحدين، فاقتنع بصعوبة حتى حصل على الأمان من الخليفة عبد المؤمن بن علي، فدخلها جيوش الموحدين 552هـ/1157م[115] .

وما أن أستتب نفوذ الموحدين في جنوب الأندلس، حتى أمر الخليفة عبد المؤمن ابنه السيد أبو سعيد عثمان بمحاصرة المرية براً وبحراً، وكان النصارى قد انتشروا في ظواهرها، فبادر الموحدون بالهجوم، وفر القشتاليون إلى داخل المدينة وتحصنوا بقصابتها، فحاصرها الموحدون حتى ساءت أحوالها، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم فهرع الفونس ريمندس لإنقاذ المحصورين، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس ، ولكن دون جدوى فاضطر إلى الانسحاب تاركاً حامية القصبة إلى مصيرها ، فاضطرت إلى المصالحة بعد حصار دام سبعة أشهر[116] . ولما أفل نجم المرابطين أل حكم مرسية إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش عام 542هـ / 1147م واستقل بشرق الأندلس وضم إليه الحصون المجاورة واستعان بالنصارى في تدبير أمور دولته ، وعندما أجتاز الموحدون الزقاق إلى الأندلس استولوا على أغلب مدنه ، وقام محمد بن مردنيش بمحاربة الموحدون فقام واستولى على مدن أبده وجيان وأستجه وبياسة عام 554هـ / 1159م إلا أن الموحدين جهزوا إليه جيش عظيم وتبادل الفريقين النصر والهزيمة حتى هزم محمد بن مردنيش عام560هـ / 1164م وحاصروا مرسية ولكنهم أقلعوا عنها دون الاستيلاء عليها[117] .

بعد توحيد المغرب العربي ولم شمل الأندلس ، شرع الخليفة عبد المؤمن بن علي على الإعداد للمشروع العسكري الضخم الذي كان ينوي تنفيذه لدخول بلاد الأندلس والقضاء على الممالك الإسبانية[118] ، فقد تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة في المغرب والأندلس، إضافة لقطع الأسطول

الموحدي، إلى جانب قيام التدريبات المتوالية على فنون القتال وخرج الخليفة عبد المؤمن من مراكش بجموع الموحدين ومختلف القبائل عام 557هـ/ 1163م وانتهى به السير إلى مدينة رباط الفتح ونزلت الجيوش في الفحوص هناك، وكان تعداد الجيش حوالي مائة ألف راجل ومائة ألف فارس، وتقرر تقسيم الجيش إلى أربع أقسام وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد الأندلس، وكان مرض الخليفة المفاجئ قد قضى على هذا المشروع، وتريث الموحدون في انتظار شفائه، غير أن المرض لم يمهل الخليفة حتى قضى نحبه في10 جمادي الأخر 558هـ / 15 مايو 1163م[119].

5- جهود الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس :

لم يكن يوسف أكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم بحسب ما رأي شيوخ الموحدين ، وكان في حدود الثلاثين عندما تولى الأمر، وكان قد مضي سنوات طويلة في الأندلس عاملاً على اشبيلية لأبيه فتدرب على قيادة الأمور، وكان ذا ثقافة واسعة وإيمان متين مع أن ملكاته لم تكن بالمستوى الذي كانت تتطلبه ظروف خلافة واسعة مثل خلافة الموحدين، إلا إنه بزل أقصي جهده في القيام بأمرها، وساس الأمور في حزم واجتهاد فوفق في المحافظة على التراث الضخم الذي صار إليه[120]. لذلك حاول يوسف بن عبد المؤمن المحافظة على الهدوء والطاعة في نواحي البلاد كلها، ومن المعروف أنه لا تخلو سنه من قيام ثائر في ناحية من نواحي البلاد ولابد من الإسراع للقضاء على الفتن مما جعل الخليفة يجتاز الأندلس.

أ- جواز الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس :-

في عام 565هـ/1169م خرج الخليفة على رأس جيش وقائده عمر بن عبد المؤمن وصحبة أخيه أبو سعيد وجماعة من كبار الموحدين لتعزيز بعض المناطق ضد هجمات الممالك الإسبانية [121]، وصل هذا الجيش اشبيلية عام 566هـ/ 1170م وفي نفس الوقت وصل جيش آخر من قرطبة بقيادة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وبصحبته إبراهيم بن همشك، وبعد انعقاد مجلس الحرب، تقرر أن يتوجه السيد أبو سعيد نحو بطليوس لإنقاذها من حصار الفونسو هنريكي فلما وصل إلى اشبيلية بلغه أن أهل بطليوس هزموا الفونسو هنريكي، فعدل عن متابعة السير إلى بطليوس[122]. أما السيد أبو سعيد فقد سار في عسكره إلى حصن جلماتية غرب بطليوس الذي اتخذه جيرالدو قاعدة للإغارة على المدينة، فاستولى عليه

الفصل الرابع

عنوة، وعلى أثر ذلك عاد جيش الموحدي إلى اشبيلية[123].

ب- معركة فحص الجلاب :-

بعد عودة السيد أبو سعيد إلى اشبيلية، عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً واستقر الرأي فيه على القيام بمحاربة ابن مردنيش ففي عام 566هـ/1171م خرج الجيش الموحدي من اشبيلية ومعهم إبراهيم بن همشك متجهين إلى قرطبة ثم إلى مرسية فاقتحموا مدينة فيجلطة أولى قواعد ابن مردنيش ، وقبض على حاكمها واعدم، ثم أخترق الموحدون بسائط الشرق الأندلسي في طريقهم إلى مدينة مرسية حتى وصلوا قصابتها وتغلبوا علي حصن القرج في ظاهرها[124].

كان ابن مردنيش خلال هذا الوقت يشجع قواته ويستصرخ حلفائه النصارى ملوك أسبانيا الشمالية فبلغ عدد المرتزقة النصارى في جيشه ما يقرب من 13 ألف مقاتل[125] ، وتبين ليوسف بن عبد المؤمن أن الأندلس في حاجة إلى عمل حاسم يقضي على خطر ابن مردنيش وأمثاله ويوقف تقدم النصارى، وكان يتوجس خيفة من إمارة البرتغال التي كانت تسير حثيثا نحو القوة في ذلك الحين بقيادة أميرها الفونسو إتريكي، لهذا تحالف فرناندوا الثاني مع أبي يعقوب يوسف ووعد بمساعدته فتمكنت قوات الموحدين من القضاء على محمد بن سعد بن مردنيش صاحب مرسية وشرقي الأندلس بعد حرب مضنية حافلة بالخسائر[126] في موقعة الجلاب على بعد أربعة أميال من مرسية، فانهزم ابن مردنيش وتحصن بمرسية فحاصره الموحدون وفي أثناء الحصار تمكن الموحدون من الاستيلاء على لورقة وبسطة ، وتوفى ابن مردنيش وهو محاصر بمرسية في رجب عام 567هـ/ 1171م فدخل ابنه هلال في طاعة الموحدين[127].

ج- حملة الخليفة الثانية إلى الأندلس :-

ساءت أحوال الأندلس بعد رجوع الخليفة أبي يعقوب يوسف إلى مراكش ففي عام 572هـ/1179م تمكن القشتاليين بمساعدة الفونسو الثاني ملك أرغون من الاستيلاء على مدينة فونكه[128]، وأخذت ضربات القشتاليين والبرتغاليين واللونيين والأرغونيين تتوالى على البلاد الأندلسية، وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين، فعزم أبو يعقوب على الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية وذلك في عام 579هـ/1086م ورأي المبادرة بمهاجمة البرتغال فزحف بجيوش لم تر الأندلس مثل كثرتها من قبل وسار إلى شنترين[129].

د- غزوة شنترين :-

أستدعى الخليفة الموحدي أخويه أبا علي الحسين والي اشبيلية وأبا الحسن علي والي قرطبة وذلك عام 573هـ/ 1177م ومعهم كبير قادة الأندلس أبو علي بن عزوز وجملة من أشياخ اشبيلية، لتدارس شئون الأندلس وكيفية مدافعة العدو، كما كان الخليفة دائماً يحث قبائل بن هلال وبني سليم على الجهاد أملا في مشاركتهم في هذه الحملة[130]، وفي عام 579هـ/ 1183م أجرى الخليفة تميزاً للجند ميز فيه القبائل وطوائف الجند النظامية وفي نفس الوقت صنع عشرة مجانيق، جربت أمامه في منطقة البحيرات خارج مراكش[131]، وتختلف الروايات في تحديد عدد المقاتلين فقيل130 ألف[132]، وقيل 140 ألف[133]، ولاشك أن هذه الأرقام مبالغ فيها.

وفي عام 579هـ/1183م ابتدأ جواز العسكر إلى جبل الفتح بالأندلس فجازت قبائل العرب ثم قبائل زناته ثم بقية القبائل، ثم جازت بعد ذلك الجيوش الموحدية النظامية، وبعدهم جاز الخليفة فيمن بقى معه من العبيد والحرس في بداية عام 580هـ/1184م[134]، وسار الجيش متجهاً إلى اشبيلية، وأمر قائد الأسطول الموحدي أبو العباس الصقلبي بإعداد السفن الحربية وشحنها بالمقاتلة وبما يلزمها من الآلات والمعدات[135]، تحرك الجيش من اشبيلية في يوم 26 من صفر عام 580هـ / 1184م إلى شنترين، مارا بمدينة بطليوس، ولما وصل الجيش وادي نهر تاجه، أمر الخليفة بالتوجه مباشرة نحو شنترين، حيث وصلها الجيش ونزل الخليفة بالجبل المطل على المدينة[135]، أما البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكي فقد احتشد داخل شنترين وقصبتها وجدوا في تحصينها واتخذوا أهبة الدفاع عنها[136].

ابتدأ الهجوم على المدينة وتمكن الموحدون من احتلال الربض والدور الواقعة خارج الأسوار وأعدت السلالم الضرورية لاقتحام الأسوار، واشتبك الموحدون مع القوات البرتغالية في عدة معارك دون أن يحصل الموحدون على كسب كبير[137]، وفي هذا الحصار نجد الجيش الضخم الذي يقوده الخليفة بنفسه يعجز عن الاستيلاء على ذلك الحصن، وفي وقت ما أثناء الحصار ولسبب غير واضح نجد الخليفة يصدر أمراً برفع الحصار والانتقال إلى مدينة أخرى، وقد صدر هذا الأمر فجأة دون إبلاغه إلى فرق المقاتلين بالطريقة التي تقتضيها

الفصل الرابع

النظم العسكرية ففوجئ الجنود بفساطيط الخليفة ورجاله ترفع على عجل، فظنوا أنها هزيمة وتبادروا إلى الفرار، وانتهز العدو الفرصة فهجم على معسكر المسلمين، وأصيب الخليفة بسهم يقال إنه كان قاتلا[138].

وهكذا في ساعات قليلة انفرط نظام هذا العسكر الضخم ونزلت به خسائر فادحة وحمل الخليفة الجريح في محفة وعاد الجيش أدراجه، وبعد ليلتين من المسير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف في 7 رجب عام 580هـ/ أكتوبر 1184م[139].

6 – حروب أبو يوسف يعقوب المنصور بالأندلس:

كان البرتغاليون بعد انتصارهم على الموحدين في شنترين قد توغلوا حتى غرب الأندلس، وأخذوا يشنون الغارات على الأراضي الأندلسية ، فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى العبور إلى الأندلس في 3 ربيع الأول عام 585هـ / 1189م فسار بجيشه إلى شنترين وأشبونة، لكي ينتقم لهزيمة أبيه ولمقتله ،

أ- غزوة مدينة شلب:-

كان سقوط مدينة شلب في يد الفونسو هنريكي بمساعدة الفرنج[140]، ضربة قاصمة لسلطات الموحدين في الغرب الأندلسي، وسقوطها يعني تهديد بقية ولايات الغرب في اتجاه ولبه وليلة ثم اشبيلية، وفي نفس الوقت كانت قوات بزعامة الفونسو الثامن باتجاه قرطبة مكتسحا البسائط شرقا، موقعا الهزائم بالقوات الموحدية[141] . كان لتلك الأحداث أكبر الأثر في نفسية الخليفة، الذي ما كاد يقف على أخبارها حتى أخذ في التأهب للعبور إلى الأندلس واستئناف حركة الجهاد.

ففي عام 586هـ / 1190م عبر الخليفة المنصور بحر الزقاق ونزل بجزيرة طريف ثم تحرك شمالا نحو أركش باتجاه قرطبة، التي وصلها ونزل بها، وكان قد وصل إليها رسل من ملك قشتالة، يطلبون عقد الهدنة، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى فاستجاب المنصور إلى مطالبهم، هذا في الوقت الذي عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة المنصور[142].

قام الخليفة بعد ذلك بتميز القوات الموحديه والحشود الواصلة من المغرب وأمر بعقد الرايات، وخرج بقواته من قرطبة نحو الشمال الغربي إلى وادي نهر تاجه، وهناك لحق به السيد يعقوب بن أبي حفص والى اشبيلية بقواته في خطة لإرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم من قواته في الشمال بعيداً عن شلب ثم اتجه المنصور صوب شنترين ، وهاجمت قوات الموحدين قلعة أركش التي عرض حاكمها التسليم بالأمان، ثم سار الموحدون وهاجموا مدينة طومار

وانتهى إلى حصار مدينة شلب، إلا أن الأوامر صدرت عن الخليفة المنصور بالكف عن القتال واختتام أعمال الفتح، وصدرت الأوامر للجيش المحاصر لمدينتي طومار وشلب بأن يغادرها على جناح السرعة[143].

وهنا نلاحظ ظاهرة تكرار الانسحاب وهذا يرجع إلى أن الموحدين كانوا يصرون على أن يتولى القيادات أفراد بيتهم أو أفراد بيت أبي حفص عمر الهنتاتي، ومن سوء الحظ أن أمراء البيت الموحدي – وكانوا يلقبون بالسادة – كانت مواهبهم محدودة في جملتهم[144].

ب- غزوة قصر الفتح (أي دانس) :-

بعد عودة المنصور إلى اشبيلية، أخذ يجدد العزم ويجمع الآلات ويستكمل الاستعدادات لاستئناف الجهاد، فخرج من اشبيلية في قواته الكبيرة وعبر وادي نهر بأنه مخترقاً أراضي البرتغال باتجاه قصر الفتح، وأصدر الخليفة أمراً بمهاجمة المدينة وقد كان الهجوم غاية في العنف والقوة مما اضطر أهل المدينة إلى طلب الصلح، فاستولى الموحدون على المدينة وشحنوها بالمقاتلة ثم اتجه الموحدون نحو حصن قلماله والمعدن فاستولوا عليهما بعد طلب الأمان[145].

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك نحو مدينة شلب، وفي الحال طوقوها بقوات كثيفة واستمر الحصار ثلاث عشر يوماً، ودخلت القوات المدينة ورفعوا الرايات على الأسوار، واستمر المنصور فيها لمدة ثلاث أيام ثم غادرها متوجهاً إلى اشبيلية، في طريق عودته إلى مراكش عام 587هـ/1191م[146].

ج- معركة الأرك:-

أستنفر الخليفة المنصور الناس في كل نواحي بلاده وأعد أحسن فرق جنده، ودعا العرب إلى الاشتراك معه في الجهاد، ولاشك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين حركت الناس في المغرب والأندلس وزادت الحماسة فتقاطرت الناس على المعسكر وأشرأبت القلوب إلى النصر[147].

لذلك أرسل المنصور إلى ولاة الأندلس بالحضور إلى مراكش لتلقي تعليماته وتدارس الأمر، فتقرر معه أن الهدنة مع ملك قشتالة المنعقدة عام 586هـ/1190م قد انتهى أجلها وأمر أن تعد العدة للسير إلى الأندلس، فخرج الخليفة المنصور نحو الأندلس عام 591هـ/1194م حيث اجتمعت الحشود من سائر أنحاء المغرب قاصداً مدينة اشبيلية، التي مكث بها أسبوعين ، يقوم بإجراء التميز واستكمال الاستعدادات العسكرية، ثم رحل إلى قرطبة ومنها إلى قلعة

الفصل الرابع

رباح[148]، وعندما علم الفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك أسرع فاستنفر ملوك إسبانيا النصرانية واستصرخ البابوية فوافته حشود كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة وتجربة في الحروب ، وتقدمت هذه الحشود فأخذت مكانها في سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة وادي أنه[149].

تحرك الجيش الموحدي إلى أن وصل مقربة من الجيش القشتالي في الأرك، وهناك أجرى الخليفة المجالس الحربية، وأجرى المشاورات مع أشياخ الموحدين والقبائل وقواد الجيش، الذين أحالوه إلى عبد الله بن صناديد لأخذ رأيه فجاءت إجابته، بأن يدفع بمعظم الجيش إلى المعركة، ويترك قوات احتياطية في الخلف، تهرع إلى نجدة إخوانهم في حال كسرهم، وقد وافق المنصور على هذه الخطة وجعل أبا يحيى بن أبي حفص قائداً عاماً للجيش[150].

قام أبا يحيى بن أبي حفص بترتيب الجيش فجعل عسكر الأندلس على الميمنة وسائر قبائل العرب والمغرب على الميسرة وجعل المطوعة والرماة والأغزاز في المقدمة، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هنتاته، أما الخليفة فقد بقى في خاصته في المؤخرة على أهبة الاستعداد، إن كان النصر للمسلمين فذاك ، وألا فبادر الخليفة بقواته للقاء العدو، وليحمي ظهور المسلمين [151]، وكانت جموع كبيرة، اختلفت الروايات في تقديرها، ينكر ابن عميرة الضبي أن جيش الفونش الثامن كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس، ومئتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم واعدوا أموالا، فهزمهم الله تعالى [152].

كانت محلة الجيش الإسلامي في سهل الأرك في حين كان الجيش القشتالي على المرتفع المشرف عليه، قرب الحصن ، وفي يوم الأربعاء التاسع من شعبان عام 591هـ/ 18 يوليو 1195م بدأت المعركة وركز القشتاليون هجومهم في بداية الأمر على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة، فلما رأي المنصور ذلك نهض بنفسه وترك قواته على حالها وتقد منفرداً يحث الجند على الثبات والهجوم على العدو، فكان لحركته أعظم الأثر في نفوس الجند، فاندفعت سائر الحشود نحو الجيوش القشتالية، والتحم الجيشان واشتد القتال ورخصت النفوس في ساحة المنايا، وكثر القتلى بين القشتاليين الذين ما لبثوا أن انهارت قواهم وفروا من ساحة المعركة في نحو عشرين فارساً نحو مدينة طليطلة ولولا دخول الليل لما بقي منهم أحد[153].

استمرت المعركة يوم واحد وغنم المسلمون مغانم كبيرة فمن الدروع كان ستون ألف درع[154]، ومائه وخمسين ألف من الخيام وعشرات الآلاف من الخيل والحمير، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى وقسم الخليفة الغنائم على الجند بمقتضى الشرع، أما خسائر القشتاليين البشرية فكانت كبيرة جداً فقد قتل مائه وستة وأربعون ألفاً، وعدد الأسرى ثلاثين ألف[155]. ولاشك إن هذه الأرقام مبالغ فيها، ولكن بالتأكيد كانت خسائر القشتاليين كبيرة في الأرواح والمعدات.

وبعد ذلك النصر الذي ثبت حدود الإسلام في الأندلس على خط الوادي آنه، أرسل المنصور فرقاً من الجيش استعادت الكثير من حصون غربي الأندلس، وتوجه هو نحو طليطلة عاقداً العزم على الاستيلاء عليها، ولكن الشتاء كان قد حل فلم يزد المنصور على تخريب عدد من الحصون وحرق الزرع وبلغت جيوشه إلى مجريط شمالي طليطلة، وفي الوقت نفسه قام الفونسو التاسع ملك ليون – حليف المنصور بمهاجمة أراضي قشتالة واجتياحها، وبعد أن أراح المنصور في اشبيلية بعض الوقت نهض مرة أخرى فأوغل في بلاد الغرب وحاصر ترجالة واستولى عليها ثم استولى على حصن شنت أقروج ثم أتجه المنصور بعد ذلك إلى غزوة مدينة طليطلة[156].

د- غزوة طليطلة:-

عندما انتهى فصل الشتاء وحل فصل الربيع وهو أكثر فصول السنة ملائمة للجهاد، حشد أبو يوسف قواته، واستعرضها، وخرج بجيوشه حتى وصل الموحدون إلى بلنسية فأفتتحها المنصور وأسر قائدها مع مائه وخمسين من أعيانها وكان الفونسو الثامن قد أسسها واهتم بها قبل ذلك، فوجههم أبو يوسف إلى المغرب حيث ساهموا في بناء جامع سلا الكبير[157]، أي جامع الرباط وواصلت القوات الإسلامية زحفها بطول نهر تاجه حتى وصلت إلى طلبيرة " أكبر قواعد طليطلة وأثراها، وأعظمها منعة وأعلاها"[158] فأمر بتخريب ما حولها ثم وصل إلى ساحل طليطلة، وأقام على حصارها عشرة أيام اشتبك خلالها عدة مرات، وانتسف رجاله الزرع والعمران فيما حولها، ثم عاد إلى اشبيلية بعد أن أحس بعدم فتحها.

ثم قام بجيوشه في عام 592هـ/1195م لغزوها، واتخذ طريق طلبيرة، وهناك بعث له الفونسو رسل لطلب الهدنة، ولكن صرفهم من غير جواب [159] فوصل إلى طليطلة وحاصرها ولكنه عجز عن افتتاحها، فمضى يخرب كل ما يقابله من مراكز عمرانية ومزارع[160]. ثم رحل إلى قرطبة ومنها إلى اشبيلية

وبعث له ملك قشتاله على مهادنه بعد ما حل ببلاده من تخريب، واشترط عليه المنصور عدة شروط وهادنه لعشرة أعوام، ثم أجاز إلى العداوة في جمادي الآخر ستة 594هـ / 1198م وتوفى بمراكش في 20 ربيع الأول سنة 595هـ/ 22يناير 1199م[161].

7- جهاد الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر في الأندلس :

لما توفى الخليفة المنصور بويع ابنه وولي عهده أبو عبد الله محمد بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله، ولقد واجهته في أول خلافته مشكلات كثيرة على الجبهتين المغربية والأندلسية، ففي إفريقية استولى يحيى بن اسحق بن غانية على أكثر بلاد إفريقية مستغلاً اشتغال الموحدين بمحاربة القشتاليين في الأندلس[164].

أما على الجبهة الأندلسية لم ينسى الفونسو الثامن هزيمة الموحدين له في الأرك، فظل يفكر في محو أثار الهزيمة، وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية وعقد مع ملكي نبرة وأرغون عهود الصلح والحلف، وفي عام 607هـ / 1211م نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين وأغاروا على بلاد المسلمين، وخربوا أراضي جيان وبياسة واندوجر، ووصلوا إلى أحواز مرسية. فلما بلغ الناصر ذلك انزعج وأبدى غضبه فقرر الجواز إلى الأندلس لذلك كتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار، وتسارع الناس إليه خفافاً وثقالاً من البوادي والأمصار[165].

أ- موقعة شلبطرة :-

بعد أن هيأ الناصر الجند والسفن لعبور بحر الزقاق عام 607هـ / 1211م عبر الخليفة بعدهم ونزل بجزيرة طريف، حيث كان باستقباله قادة وفقهاء وقضاة الأندلس، وبعد إقامة في جزيرة طريف لمدة ثلاث أيام، خرج بقواته الحربية قاصداً اشبيلية، ونزل بقصر البحيرة في الوقت الذي استقرت الجيوش الموحدية في المدينة[166]، وقسم جيوشه إلى خمس فرق : فجعل للعرب فرقة، وزناته وصنهاجة والمصامدة وغماره وسائر قبائل المغرب فرقة، وجعل المتطوعة فرقة، وجعل جند الأندلس فرقة، والموحدين فرقة، ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك في أوائل عام 608هـ / 1211م إلى بلاد قشتالة، فنزل على قلعتين هما

اللج وشلبطرة فحاصرهما وضيق عليهما، واستولى على حصن اللج أولاً، ثم حاصر شلبطرة، وهو حصن منيع قائم بأعلى جبل، فنزل عليه الناصر، ونصب عليه أربعين منجنيقاً، فخرب أرباضه، ولكنه عجز عن فتحه، وطال حصاره له وأعياه أمره، فعزم على رفع الحصار إلى حصن آخر، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع أشار عليه بالبقاء على محاصرته، فأقام عليه الحصار " ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس، وقلت علو فاتهم، وكلت عزائمهم... ودخل فصل الشتاء ، فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر " وما زال الناصر يواصل محاصرة الحصن حتى استسلمت حاميته ، وعاد إلى اشبيلية ظافراً[167].

ب- موقعة العقاب :-

بعد الهزيمة التي مني بها الفونسو الثامن ملك قشتالة في غزوة شلبطرة، أخذ يبذل جهود في مقاتلة المسلمين، فأرسل الأسقف جيراردو من مدينة شقوبية سفيراً من قبله لدى البابا اينوسنت الثالث الذي يتمتع بروح صليبية عالية، بعث هذا البابا إلى الأساقفة في جنوبي فرنسا (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة، وأنه أي البابا يمنح من لبى هذه الدعوة الغفران التام) [168] وفي ذلك يقول المراكشي(أن افتتاح قلعة شلبطرة قد روع أهل قشتالة وملكهم وخامرهم الرعب، وخرج الأدفنش – لعنه الله – إلى خاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيره القسطنطينية وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنوني لعنه الله) [169]

وقبل أن ينتهي عام 608هـ / 1211م اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من الصليبيين ، وأمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم لمدة ثلاث أيام التماساً لانتصار الجيوش النصرانية على المسلمين، كما ألقى البابا خطبة طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلي الله طلباً لنصر الأسبان [170].

وزحفت جيوش النصارى من طليطلة في 20يونيو عام 609/1212هـ بعد أن توزعت إلى ثلاث جيوش:

الجيش الأول: يقوده فارس قشتالة دون دبيجولوبث دي هارو، وعدته نحو مائة ألف مقاتل، ويقود وحداته المختلفة أسقف أربونة وأسقف برديل وأسقف نانت وغيرهم.

الفصل الرابع

الجيش الثاني: يتألف من الأرغونيين والقطلانيين وفرسان الداوية، ويقوده الملك بدرو الثاني.

الجيش الثالث: يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين وفرسان قلعة رباح، وفرسان سانتياجو، والأسبتارية، ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة، ويقود وحداته الأمير الليوني سانشو فرناندث والأمير البرتغالي بدرو، والأسقف رود ريجو خيمنث [171].

تقدم الجيش الأول وحاصر قلعة رباح وكتب قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الخليفة يستمده ، ولكن رسائله كانت تقع بين يدي ابن جامع الوزير فيخفيها عن الخليفة، فلما طال الحصار ورأي ابن قادس استحالة المقاومة مع فناء الأقوات وقلة السلاح ، وبئس من إمداد الخليفة الناصر له، صالح الفونسو على تسليم الحصن له على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم[172] . وتمكنت القوات النصرانية من الاستيلاء على قلعة رباح ، وعندما وصل الناصر وبلغه الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه، فنفر منه الأندلسيون وقرروا أن يغدروا به في المعركة[173].

●وقائع الموقعة :-

بدأت الحملة طيبة فتحرك الناصر بجيش جرار ودخل مدينة جيان وحصنها ثم تركها وعسكر في السهل الواقع أمام مخرج المضيق[174]، وهو سهل ملئ بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع وتسمى العقاب (جمع عقبة) وهى التل أو العقبة[175].

وفي يوم الاثنين الخامس عشر من صفر عام 609هـ / 1212م أستعد الفريقان لخوض المعركة التي بدأت بهجوم النصارى على المسلمين، حينما هبطت طلائعهم مسرعة من المرتفع الذي تحتله الجيوش النصرانية إلى السهل الأسفل الذي يحتله الجيش الموحدي، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدي فتصدت لهم المتطوعة بقوة وثبات، واقتتل الفريقان حتى بدأ النصارى بالتراجع فأدركته الإمدادات، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان، فاقتتلوا قتالا شديداً، فأستشهد المتطوعة عن آخرهم، هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم، لم يحرك أليهم منهم أحد، ولما فرغ النصارى من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين منهم والعرب حملة منكرة، فلما انتشب القتال بين الفريقين، فرت قوات الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوا

على ابن جامع في قتل ابن قادس أولاً ، وتهديدهم وطردهم ثانياً ، فجروا الهزيمة على المسلمين ومما أحدث اضطراب في الصفوف ، مما أتاح فرصة للنصارى لمهاجمة القلب المكون من الجنود النظامية والاحتياط ، فصمد الموحدون ودافعوا بمنتهى الشدة، ولكن النصارى استطاعوا أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدي إلى دائرة الحرس الأسود، فردتهم رماح العبيد، ولكن النصارى ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد، فاخترقوا الدائرة المدرعة وبذلك فرق الجيش الموحدي ووصلت بعض الفرق إلى فسطاط الناصر نفسه واقتحمت السلاسل الحديدية التي كانت تحصن دائرة الخليفة وبدأت مذبحة كبرى في عبيد الدائرة انتهت بتبدد ذلك الجيش الموحدي الضخم، ولم يبقى أمام الناصر سوي القرار، فركب فرسه وحوله ثلة من العبيد لحراسته وتلقى الضربات، وتوجه الناصر إلى بياسة ثم اتخذ طريقه إلى جيان، في الوقت الذي كانت فلول الجيش الموحدي تفر من كل ناحية أمام فرسان النصارى، واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل.واستولت جيوش الفونس الثامن على الغنائم الكثيرة، منها أشياء ثمينة كالعلم الموحدي، الذي ما زال محفوظاً في اسبانيا[176] .

قضى النصارى المنتصرون يومين التماساً للراحة بعد المعركة ، وفي اليوم الثالث أنقضوا على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على بياسة وأحرقوا المسلمين الذين لاذوا بمسجدهم، ثم حاصروا أبده واستولوا عليها، واستولوا على بسطة، ثم عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة بعد أن اكتفى بما أحرزه من انتصارات، بحيث أستقبله شعبه هناك بموكب من الموسيقى والأناشيد، أما الناصر فقد عاد إلى اشبيلية متظاهراً بعدم الاكتراث لهذه الهزيمة، ثم عبر بحر الزقاق إلى مراكش، وهو حزين لهذه الهزيمة، واحتجب الخليفة بعد ذلك في قصره بمراكش بقية عام 609هـ / 1213م وتوفى في 4 شعبان من سنة 610هـ / 1214م أي بعد سبعة أشهر من هزيمته في العقاب[177] .

8- خلافة يوسف بن محمد الناصر الملقب بالمستنصر (وانهيار الدولة الموحدية)(610- 620هـ / 1213 – 1223م)

صار الأمر عند وفاة محمد الناصر لدين الله في العاشر من شعبان عام 610هـ / 1213م إلى ابنه يوسف، وكان سنه حين ولي ست عشر سنة ونظراً لصغر سنه فقد تولى الأمر باسمه ومن دونه كبار وزرائه، وأولهم أبو سعيد

الفصل الرابع

عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع[178] ، ثم خلفه زكريا بن يحيى بن إسماعيل الهزرجي، وهو ينتسب إلى الخليفة يعقوب المنصور من ناحية أمه فهي بنت يعقوب، وكان المستنصر بعيداً عن أمور الإدارة ، بل كان ميلا إلى الدعة واللهو تاركاً الأمور لرجال الدولة ولهذا نجد أن السادة والأشياخ يستعيدون سلطانهم ويعودون إلى الاستبداد بالولايات والتصرف في أمرها[179]، لذلك أستغل هذا الوضع فقاموا بالاستيلاء على أكثر مدن الأندلس. فأستغل الملك البرتغالي الفرصة ففي عام 614هـ /1217م هاج البحر بجماعة من الصليبين الألمان والانجليز كانوا في طريقهم إلى سواحل الشام للاشتراك في الحرب الصليبية هناك فلما ثار البحر بهم استقرت سفنهم إلى الأشبونه، فحرضهم البرتغاليون على العدوان على أرض المسلمين في الأندلس على اعتبار أن حرب المسلمين واحدة، وأقنعوهم بالاشتراك معهم في الاستيلاء على بلدة القصر – أو قصر أبي دانس الواقع جنوب شرقي الاشبونه – وكان البرتغاليون حريصين على الاستيلاء عليه لينفتح أمامهم باب الأنسياح إلى الجنوب، وكان يتولى حكم هذا القصر رجلا من خيرة رجال الموحدين وهو أبو بكر بن وزير ثم خلفه في الولاية ابنه عبد الله، وهو الذي تولى الدفاع عن الحصن عندما أقبل البرتغاليون والصليبيون يحاصرونه في يوليو 1217م وقد استنجد عبد الله بن وزير بخليفة الموحدين فسير إليه القوات والإمداد من سائر جنوبي الأندلس ولكن الخوف من النصارى كان قد استقر في قلوب المسلمين عقب هزيمة العقاب، فما كادوا يلقون النصارى عند أسوار قصر أبي دانس حتى ولوا مدبرين وقتل منهم خلق كثير، وكان ذلك في ربيع الثاني عام 614هـ / يوليو 1217م، وبعد حصار طويل استسلم البلد، وفقد المسلمون قاعدة أخرى، من قواعد الأندلس الحصينة، ويلاحظ أن إدارة الموحدين أصيبت بشلل بعد هزيمة العقاب فوقفت جامدة والظروف تتغير بسرعة في الأندلس ، فضاعت الثغور، وضعفت الحامية وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريحهم[180].

ولما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر في 12 ذي الحجة 620هـ/ يناير 1223م، أضطرب الأمر، واجتمع الناس على تقديم عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن عام 620- 621هـ/1224م وفي عهده تفرق أمر الموحدين وازدادت مطامعهم في الخلافة، فاستغل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس، وتلقب بالعادل وأيده بعض أعيان الموحدين، فخلعوا عبد الواحد وقتلوه بعد أشهر من ولايته، كذلك لم يطل عهد العادل بن المنصور إذ انتهى الأمر

بمقتله عام 624هـ/ 1227م وخلفه أخوه أبو العلا إدريس بن المنصور، فبويع بالخلافة في اشبيلية، مقر ولايته أيام أبيه المنصور وأيام أخيه العادل، وتلقب أبو العلا بالمأمون، وبايعه أهل الأندلس، وفي الوقت الذي بايعه فيه أهل الأندلس بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة في مراكش وتلقب بالمعتصم، وقام صراع عنيف بين خليفة الموحدين في الأندلس وخليفتهم في المغرب [181].

وكن أبو العلا المأمون قد عقد حلفاً مع ملك قشتالة قبل رحيله إلى المغرب تنازل فيه عن عشرة من الحصون، وأمده الملك القشتالي في مقابل ذلك بخمسمائة فارس نصراني يعبرون معه إلى المغرب ويعينونه على درك الخلافة، وفي ذي القعدة 626هـ / أكتوبر 1229م عبر هذا الخليفة بحر الزقاق إلى المغرب تؤيده القوة النصرانية، وسار لملاقة يحيى بن الناصر الملقب بالمعتصم وانتصر عليه في ربيع الأول 627هـ / 1230م ودخل مراكش، وشرعت الفرقة النصرانية التي معه في بناء كنيسة لها في عاصمة الموحدين، وبعد استقراره دبر مكيدة قتل فيها نحو مائة وخمسين من أشياخ الموحدين وأعيانهم، وبذلك انكسرت شوكة هذه الطائفة التي كانت في الحقيقة عصب القوة الموحدية، ثم أعقب المأمون مرسومه الشهير بالقضاء على رسوم المهدي ابن تومرت وتعاليمه ونظام حكومته، باعتبارها نظماً رجعية، لا تتفق مع روح الدين الصحيح. وبذلك انتهت أسطورة محمد بن تومرت المهدي كقوة فعالة في حركة الموحدين وأصبحت خبر يروى، فسرت روح السخط إلى معظم القبائل، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص، ثم مرض المأمون وتوفي فجأة، وهو في إبان سلطانه ومشاريعه ، وذلك في شهر ذي الحجة عام 629هـ / 1232م فخلفه ولده الفتى أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد[182].

خلال السنوات الأولى من ولاية أبي محمد عبد الواحد الرشيد سقطت قواعد خط الوادي الكبير في يد فرناندو الثالث، واختفى بعد ذلك بالفعل كل أثر فعال لنفوذ الموحدين في الأندلس، إذ ترك أهلها وحدهم يواجهون قوات قشتالة وليون ومملكة أرغون التي تولاها ملك شاب طموح هو خايمي الأول[183]. ففي هذه الفترة قامت الفتنة الثالثة في تاريخ الأندلس واشتعلت نار الثورة واحتدمت في سائر مدنه، وكان المحرك الأول لهذه الثورات محمد بن يوسف بن هود الجزامي بمرسية، وقد تمكن ابن هود من التغلب على شرق الأندلس كله، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية

الفصل الرابع

والجزيرة الخضراء ومارتة، وأيقن أهل الأندلس أن إمارته ستكون مخرجاً لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت بلادهم في ذلك الحين دعا وكاتب الخليفة المستنصر العباسي ببغداد، ولكن جهود ابن هود اصطدمت بحركات مضادة من جانب أبي العلا إدريس من جهة والقشتاليين والأرغونيين من جهة ثانية، وبعض خصومه من رؤساء الأندلس من جهة ثالثة، ونخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن ناصر صاحب حصن أرجونة الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشريش عام 630هـ/ 1232م وعلى اشبيلية في عام 632هـ/ 1234م وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة عام 635هـ/ 1237م وانتهز القشتاليون والأراغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس واستولوا على بعض المدن الأندلسية الهامة، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة 633هـ / 1235م ، بينما أتم الليونيون فتح إقليم استرامادورة[184] .

فلما أتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس، أتيح له الاستيلاء على بياسة وأبده في سنة 633هـ / 1235م، وسار بقواته نحو قرطبة واستولى على بعض أبراج المدينة مما دفع القرطبيين بمراسلة ابن هود أميرهم الشرعي يطلبون الغوث والإنجاد وقدم ابن هود ونزل استجه على مقربة من قرطبة، فنكل عن الاشتباك مع جيش القشتاليين لكثرتهم ، فترك قرطبة لمصيرها، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها، أو يستطيع إنقاذها فيما بعد، ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر، وفقد القرطبيون كل أمل في الغوث والإنقاذ إلى أن استسلمت ودخل القشتاليون قرطبة في 23شوال عام 633هـ/ 29يونيه عام 1236م، وفي الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة وأقيم فيه قداس للشكر[185]، وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية، وذلك إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام، وكان سقوط قرطبة ضربة مميتة صوبتها اسبانيا النصرانية إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى[186] .

كما سيطر فرناندو على اشبيلية حاضرة الموحدين عام 646هـ / 1248م وتمكن أخيراً من ضم قادس وولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من المصب الكبير، أما شرق الأندلس فقد كان خطر خايمي الأول ملك أرغون أعظم من خطر فرناندو، إذ تمكن من الاستيلاء على ميروقه والجزائر الشرقية فيما بين

عامي 627- 635هـ / 1229 – 1237م واستسلمت له بلنسية في عام 636هـ/ 1238م ونجح في عام 645هـ / 1247م في الاستيلاء على جزيرة شقر ومدينة شاطبة أما مرسية فقد تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء عليها في عام 641هـ/ 1243م[187].

وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب والأندلس ، في عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى ظهر على المسرح السياسي بالمغرب الأقصى نفوذ بني مرين وبدأت حياتهم السياسية بصراع طويل ومرير مع الموحدين ، استمر ثمانية وخمسين عاماً (188) وانتهى هذا الصراع على يد السلطان أبي يوسف بن عبد الحق عندما أنتصر في موقعة وادي غفو، وقضى على آخر معقل للموحدين ، ودخل مراكش العاصمة عام 668هـ/ 1269م[189] ، أما في الأندلس فأخذت تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، وكانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة[190] غرناطة. وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل في الفصل اللاحق.

هوامش الفصل الرابع

1)عطا أبو رية: اليهود في ليبيا وتونس والجزائر ، ص 76
2)نفس المرجع : ص 78 ، النويري : مصدر سابق ، حـ 24 ص 217
3)أومبرتورنسيتانو : النورمانديون وبنو زيري مع الفتح النورماندي لصقلية حتي وفاة روجر الثاني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة م 11 حـ 1 مايو 1949 ص 185 .
4)عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص 419
5)ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص 70 ، ابن الآبار : مصدر سابق ، حـ ص 21 – 22 ، المقريزي : اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين ، حـ ص 199 ، الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة 1961م حـ 6 ص331 .
6)الأمير شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، فاس المغرب 1936 حـ 1 ص 118 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، إسكندرية ص 294

7) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي القاهرة 1957 ص 101 – 103.
8) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، قسم3 الأندلس ، ص226 .
9) ابن خلدون: العبر، حـ 6 ص374، ابن الخطيب: أعمال الأعلام قسم3 ص226 .
10)ابن بشكوال: الصلة، القاهرة 1966، ترجمة رقم 1337 ص611-612 . ابن خلدون: العبر، حـ 6 ص373- 374، أحمد مختار العبادي: مرجع سابق ص291 .
11)العبر، حـ 6 ص374.
12)نسبة إلى جزولة أحدي قبائل صنهاجة، أحمد مختار العبادي هامش رقم 4 ص290 .
13)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ، ص227 .
14)ابن عذارى : البيان المعرب ، حـ 4 ص 9 – 17 .
15)ابن خلدون : العبر ، حـ6 ص374 ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم3 ص227 .
16)أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص292
17)قرآن كريم : سورة آية الأنفال أية 8 0
18)فتحية النبراوي : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، ص273
19)قرآن كريم سورة آل عمران أية 3 0
20)فتحية النبراوي : مرجع سابق ، ص274
21)السيوطي : حسن المعاصرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة 1327هـ حـ 1 ص71
22)ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ليدن 1881 ، ص118 .
23)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة شباب الجامعة أسكندرية 1984 حـ 2 ص349
24)أحمد مختار العبادي ، مرجع سابق ، ص292
25)مجهول : الحلل الموشية ، ص10 .

26)جبال درن : إحدى جبال أطلس التي تمتد إلى الجنوب ، أنظر ، الحسن الوزان : وصف افريقية ، تحقيق محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1984 ، حـ 1 ص120 .

27). ابن خلدون : العبر ، حـ 6 ص377 السلاوي : الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، حـ2 ص21، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص293

28)عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص420

29)ابن خلدون : العبر ، حـ6 ص375

30)الحسن الوزان : مصدر سابق ، حـ1 ص112 ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ4 ص20- 21 أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص311 .

31)نفس المصدر ، حـ1 ص135- 136 .

32)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ، ص230 .

33)ابن خلدون : العبر ، حـ6 ص377

34)مجهول : الحلل الموشية ، حـ11 .

35)المقري : نفح الطيب ، حـ4 ص452 .

36)عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص327- 328 .

37)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ، ص244 ، ابن الكردبوس : مصدر سابق ، ص82

38)مجهول : الحلل الموشية ، ص23 .

39)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص245 .

40)ابن خلدون : العبر حـ6 ص382، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم3 ص246

41)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص240 .

42)المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص132

43)ابن الآبار : الحله السيراء ، حـ2 ص100 ، محمد عبد الله عنان : ملوك الطوائف ، ص319 – 447

44)يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، 1958 ، ص80 .

45)عبد الله بن بلقين :مذكرات الأمير عبد الله أخر ملوك بني زيري تحقيق ليفي بروفنسال ، ص104
46)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص242
47)ابن الآبار : الحلة السيراء حـ2 ص100 – 101 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1968 ، حـ7 ص116 .
48)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص244 ، الحلل الموشية ص43
49)مجهول : الحلل الموشية ، ص47
50)محمد عبد الله عنان : ملوك الطوائف ، ص322
51)مجهول : الحلل الموشية ، ص47
52)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص263 ، محمد عبد الله عنان : ملوك الطائف ، ص351
53)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص 249
54)ابن الكردبوس : مصدر سابق ، ص107 – 108
55)أبن الآبار : الحلة السيراء ، حـ2 ص168 ، محمد عبد الله عنان : ملوك الطوائف ، ص239 ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص34 – 39
56)ابن الكردبوس : مصدر سابق ، ص 122 .
57)ابن الخطيب: أعمال الأعلام، قسم3 ص249 ، مجهول : الحلل الموشية ص47 – 48
58)عبد الله بن زيري : التبيان ، ص108
59)نفس المصدر ، ص108 – 109
60)نفس المصدر ، ص175
61)مجهول : الحلل الموشية ص51
62)محمد عبد الهادي شعيرة : المرابطون تاريخهم السياسي ، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة 1969، ص137
63)المراكشي : مصدر سابق ، ص163
64)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص173 .
65)مجهول : الحلل الموشية ، ص54 – 55 .
66)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص173- 174

الفصل الرابع

67)ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ4 ص37- 38 .
68)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص174 .
69)محمد عبد الهادي شعيرة : مرجع سابق ، ص148
70)المراكشي : مصدر سابق ، ص171 ، عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1988 ، ص34
71)نفس المرجع ص173، محمد عبد الهادي شعيرة: مرجع سابق، ص157.
72)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم 3ص175- 176 . عصمت دندش : مرجع سابق ، ص44 .
73)مجهول: الحلل الموشية، ص63
74)ابن خلدون: العبر حـ6 ص479.
75)لم يكن هذا الاسم الأصلي، فقد كان يحمل أسماً مختلفاً ثم استبدل به أسم محمد بعد عودته من المشرق تيمنا باسم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رأي أن يكون أسم أبيه عبد الله، ولم يكن هذا هو أسم أبيه الحقيقي، إذ كان يسمى بتومرت بن وجليد ، وكان جده لأبيه يسمى وجليد وجده لأمه يسمى وابوركن، وهى أسماء بربرية بحته، انظر، البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس 1928 ص30 ، ابن مقديش : مصدر سابق، حـ1 ص451
76)ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، مكتبة نهضة مصر ص257 . محمود مقديش : مصدر سابق ، حـ1 ص454 . عز الدين موسى : الموحدون في الغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1991 ، ص35
77)المراكشي : مصدر سابق ، ص187 .
78)نفس المرجع ، ص178 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، 1997 ، ص70
79)المراكشي : المعجب ، ص179 .
80)جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ، القاهرة 1965 ، ص78 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية

وحضارتها في العصر الإسلامي ، إسكندرية 1961 ، ص178 ، عصمت دندش : مرجع سابق ، ص40

81)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص71 .

82)المراكشي : المعجب ، ص179

83)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص72 ، ابن السراج : الحلل السندسية حـ 2 ص100

84)ابن السراج : نفس المصدر حـ2 ص102 ، 108 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين، ص73 – 80

85)ابن خلدون: العبر ، حـ 6 ص469.

86)جبل عالي جداً شديد البرودة، ويزدحم بالسكان فيه من جهة وعلى قمته مدينة تسمى تينملل وهى عامرة ويخترقها نهار جار وفيها دفن الداعية المهدي بن تومرت وتلميذه عبد المؤمن، وسكان البلد من شر الخلق وأراذل النسل، ويتبجحون بأنهم علماء، لأنهم درسوا جميعاً عقيدة هذا الداعية الذي يعد من أهل البدع، وحينما يرون أجنبياً قادماً عندهم يريدون أن يناقشوه، وهم يرتدون ثياباً رديئة لعدم وجود أي تاجر أجنبي في هذه البلاد، ويعيشون عيشة وحشية فيما يخص طريقتهم في الحكم، إلا أنه يوجد فقيه على رأس مجلسهم ، ويأكلون عادة الشعير وزيت الزيتون ، وعندهم كمية كبيرة من الجوز وتفاح والصنوبر . انظر . الحسن الوزان : وصف إفريقية ، حـ1 ص141 .

87)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص88 . عصمت دندش : مرجع سابق ص105

88)أبن القطان : نظم الجمان ، ص102 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص90 – 91 .

89)سورة الأنفال آية 37 .

90)البيذق : أخبار المهدي ، ص28 ، البن القطان ، ص103 – 105 ، ابن خلدون : العبر ، حـ6 ص228 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص91 – 92 .

91)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص92

الفصل الرابع

92)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة إسكندرية ، ص693 .

93)ابن القطان : مصدر سابق ، ص122 ، البيذق : مصدر سابق ، ص79 المراكشي : المعجب ، ص193 ، وثائق المرابطين والموحدين ، ص94 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ، ص694 .

94)ابن القطان : مصدر سابق ، ص122 ، البيذق : مصدر سابق ص79 المراكشي : مصدر سابق ، ص193 ، وثائق المرابطين والموحدين ، ص94 – 95 عز الدين عمر موسى : الموحدون في الغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1991 ص41

95)سقطت فاس في أيدي الموحدين عام 540هـ / 1146م ، انظر ابن عذارى : البيان المغرب قسم الموحدون ، تحقيق ص23 – 24 ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص189 .

96)كان نزول الموحدين على مكناسه في القول الصحيح آخر عام أربعين (وخمسمائه) فمدة الحصار على هذا أربع سنين وأشهر وبقيت المدينة خالية إلا من فل الموت قتلا وجوعاً وتفرق ذلك الفل انظر ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون نسخة محققه قام بها المؤلف: عطا أبو رية تحت الطبع ورقه 9 .

97)البيذق : مصدر سابق ، ص63 – 64 ، ابن عذارى : البيان المغرب قسم الموحدين ص27 – 30 ، محمود مقديش : مصدر سابق ، حـ1 ص463 .

98)ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم3 ص265

99)ابن عذارى: البيان قسم الموحدين ص34 ، ابن خلدون : العبر : م 6 ص485 .

100)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص27

101)ابن الخطيب : أعمال الأعلام، قسم3 ص251 ، عصمت دندش : مرجع سابق ، ص105

102)ابن الآبار : الحلة السيراء ، حـ 2 ص199 ، ابن عذارى : البيان المغرب قسم الموحدين ص22 .

103)ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص188 ، يوسف أشباخ : مرجع سابق ص222 .
104)ابن الآبار : مصدر سابق ، حـ2 ص200 ، عصمت دندش : مرجع سابق ، ص107 .
105)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص30 .
106)ابن خلدون : العبر ، م6 ص486
107)ابن عذارى : البيان ، قسم الموحدين ، ص33
108)ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم3 ص255 .
109)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص38 .
110)البيذق : مصدر سابق ، ص67، 168 .
111)نفس المصدر ، ص70 – 72
112)ابن خلدون : العبر ، م6 ص487 ، ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ص39 .
113)ابن خلدون : العبر ، م6 ص489 ، ابن عذارى : البيان ، قسم الموحدين ص38 .
114)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص42
115)ابن خلدون : العبر ، حـ 6 ص235 ، ابن السراج : الحلل السندسية ، حـ2 ص111
116)ابن الخطيب : الإحاطة حـ1 ص265 – 279 .
117)يوسف أشباخ : مرجع سابق ، ص266 ، عصمت دندش : مرجع سابق ص116 .
118)مراجع عقيلة الغناوي : سقوط دولة الموحدين ، بنغازي ليبيا 1975م ص77 .
119)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص55 ، مراجع : مرجع سابق ، ص78 . محمود مقديش : مصدر سابق ، ص465
120)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص115 .
121)مراجع عقيلة : مرجع سابق . ص109 .
122)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص713 .
123)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص86 .

الفصل الرابع

124)محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ، مكتبة الخانجي القاهرة 1964م ، ص48 .
125)عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص459 .
126)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص116
127)المراكشي : المعجب 249 ، ابن خلدون : العبر م6 ص500 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص714
128)يوسف أشباخ : مرجع سابق ، ص321 .
129)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ، ص417 ، عبادة كحاله : مرجع سابق ، ص260
130)مراجع عقيلة : مرجع سابق ، ص145 – 146 .
131)محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ص114
132)ابن عذارى : البيان ، حـ 3 ص131 .
133)الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس بيروت 1980م ص114 .
134)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ،ص130
135)محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ص119
136)المراكشي : المعجب ، ص145
137)محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ، ص122
138)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص117 .
139)المراكشي : المعجب ، ص146 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 7 ص135 – 136 .
140)يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص330 .
141)ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ7 ص4 .
142)محمد عبد الله عنان : دول الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ، ص176 عباده كحاله : مرجع سابق ، ص261
143)محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ، ص177 – 178 .
144)عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين ، ص117 .

145)ابن خلكان: وفيات الأعيان، حـ 7 ص7 ، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، ص186 .
146)محمد عبد الله عنان: مرجع سابق، ص187. محمود مقديش: مصدر سابق . حـ 1 ص469 .
147)عبد الواحد المراكشي : مصدر سابق ، ص123
148)المقري: نفح الطيب،حـ1 ص443، محمد عبد الله عنان: مرجع سابق ص300.
149)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص124 محمود مقديش : مصدر سابق ، ص469 .
150)عباده كحاله : مرجع سابق ، ص262 .
151)المقري: نفح الطيب، ج 1 ص443 ، محمد عبد الله عنان: مرجع سابق، ص200
152)بغية الملتمس، 45 – 46 .
153)المقري : نفح الطيب ، حـ 1 ص443 ، عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص487 ، محمود مقديش : مصدر سابق ، حـ 1 ص470
154)ابن خلكان : مصدر سابق ، حـ 6 ص8 ، محمود مقديش : مصدر سابق، ج 1 ص470
155)المقري : نفح الطيب ، حـ 1 ص443 .
156)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص124 – 125
157)الحميري : الروض المعطار ، ص13 .
158)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص 728 .
159)نفس المرجع ، ص729 .
160)ابن عذارى : البيان قسم الموحدين ، ص56 .
161)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص125 . محمود مقديش : مصدر سابق ، حـ 1 ص471
162)المراكشي : المعجب ، ص313 – 314 .
163)ابن خلدون : العبر م6 ص517 .

الفصل الرابع

164)المراكشي : المعجب ، ص313 – 314 ،محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ص283 .
165)السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص220 ، السيد عبد العزيز سالم : بلاد المغرب الإسلامي ، ص730,733 - 734 .
166)ابن خلدون : العبر ، م6 ص249
167)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص734 – 735 .
168)محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ص289 ، السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص736 ، عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص491
169)المعجب، ص399
170)محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ص294
171)يوسف أشباخ : مرجع سابق ، ص361 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ، ص737 .
172)السلاوي: الاستقصاء، حـ 2 ص223 ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب ص738.
173)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين، ص149 .
174)المضيق : يسمى خانق دسبينا بيروس وهو الخانق الضيق الذي يشق جبال المعدن ويصل إلى وسط الأندلس بجنوبها وهو الباب المؤدي من قشتالة إلى حوض الوادي الكبير ويسميه العرب (مطرد الكلب) فإذا تم له الاستيلاء على ذلك الممر حال دون النصارى دخول الأندلس . انظر عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص148
175)نفس المصدر ، ص149 .
176)المراكشي : المعجب ، ص401 ، الحميري : الروض المعطار ، ص138 السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص224 ، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ، ص313 – 317 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص149 – 150 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ، ص740 – 741 ، عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص، عباده كحله: مرجع سابق، ص263 – 266

177)المراكشي: المعجب، ص403، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين، ص324 ، السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص741 – 742 ، محمود مقديش: مصدر سابق، حـ 1 ص475 .

178)بنو جامع : ينتمون إلى إبراهيم بن جامع أندلسي هاجر إلى المغرب، وكان يعمل في صناعة النحاس ، ثم انضم إلى محمد بن تومرت وعلا أمره معه وصار في جملة رجال الدولة ، ثم تولى الوزارة لعبد المؤمن، وخلفه أولاده في كبار المناصب، ولكن سلطانهم اشتد أيام يوسف المستنصر، انظر عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين، ص163

179)عبد الواحد المراكشي : مصدر سابق، ص163

180)نفس المصدر ص165 – 166 ، ابن خلدون : العبر ، م6 ص170

181)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص743 .

182)عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين، ص171، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1966م، ص31 .

183)عبد لواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص175 .

184)السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص744، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص31 – 32 .

185)ما زال جامع قرطبة العظيم قائماً إلى يومنا بأروقته وعقوده وأعمدته الإسلامية كاملا كما كان أيام المسلمين، بيد أنه حول إلى كنيسة قرطبة الجامعة، وأقيمت الهياكل في سائر جوانبه تحت عقوده القديمة، وأقيم في وسطه مصلى كبير على شكل صليب وقد أزيلت قبابه ونقوشه الإسلامية، ولم يبقى محتفظاً بنقوشه القديمة سوى محاريبه الثلاثة، وما زال هذا الأثر الأندلسي العظيم إلى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الإسلامي القديم (المسجد الجامع) انظر. محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية، مكتبة الخانجي القاهرة 1968م،ص20 – 33.

186)للمزيد حول سقوط قرطبة. انظر ابن خلدون : العبر حـ 4 ص169 – 183 ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة القاهرة ص 202، محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين ، ص418 – 425، عبد الواحد

الفصل الرابع

المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين ، ص186. محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص34.

187)السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب، ص745، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص35 – 36 .

188)محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني دار القلم الكويت 1985م ، ص8

189)عطا أبو ريه: اليهود في المغرب الأقصى، دار الكلمة سوريا 1999م، ص37 – 38، محمود مقديش: مصدر سابق، حـ 1 ص522 .

190)محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص37 .

الفصل الخامس

لكة بني الأحمر في غرناطة 721 – 898 هـ / 1231 – 1492م»

1- نشأة مملكة غرناطة
2- ابن الأحمر والقوى النصرانية بالأندلس .
3- دور أبي يوسف المريني وابن الأحمر في الجهاد الأندلسي .
   أ- العبور الأول
   ب- العبور الثاني
   ج- العبور الثالث
   د- العبور الرابع
4- دور مشيخة الغزاة في الجهاد بالأندلس .
5- موقعة طريف (741هـ / 1340م)
6- سقوط مضيق جبل طارق بأيدي النصارى (867هـ / 1462م)
7- نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس .
8- تسليم غرناطة .
9- مراسم التسليم وخروج أبي عبد الله إلى فاس .

الفصل الخامس

الفصل الخامس

1- نشأة مملكة غرناطة:

لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل – كما قدمناه – وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحي، والبعض الآخر ينتزعه النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر سليل بن نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة[1]، وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، ويرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج واحد أكابر الصحابة، فهم بذلك من أعرق البطون العربية[2].

ولد محمد بن يوسف في أرجونة عام 595هـ / 1198م أطيب البلاد مدرة وأفرها غلة نشأ ،جندياً ثغرياً شهما رافضاً للدعة والراحة، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة، فلما تفاقمت الفتنة وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس، ووفاة ابن هود، شعر محمد بن يوسف بن نصير الملقب بابن الأحمر بأن مركزه يتحرج، ولم يجد لنفسه حلاً إلا بأن يسلك نفسه في ولاء ملك قشتالة، واجتهد في الاستكثار من الجند والمال ، وبالفعل أصبحت جيان في أيامه الأولى مقر لإمارة قوية ولكنها كانت مهددة دائماً بغارات النصارى ، فكان ابن الأحمر يتجه إلى أن يجعل قاعدة غرناطة عاصمة له[3].

فانضوى تحت لواء ابن هود وجاهر بطاعته عام 631هـ / 1228م – كما قدمناه – فانهارت دولته وعندئذ بادر أبن الأحمر إلى العمل، لأجتناء تراثه في الأنحاء الوسطى، وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر، وكان ظلوماً جائراً، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد، واقتحموا القصبة والقصر في عصبتهم، وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر، وبعثوا إليه يستدعونه ، فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس في يوم أواخر رمضان عام 635هـ/ ابريل 1238م، وهو يرتدي ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب، ثم

خرج من المسجد إلى قصر باديس ، ونزل في خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه، وما كان ابن الأحمر يستقر في حاضرته الجديدة، حتى عول على افتتاح ألمرية وسحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقاتله، فلما أشتد الحصار غادرها الرميمي من جهة البحر بأهله وماله في سفينة خاصة، وسار إلى تونس مستظلاً بحماية أميرها أبي زكريا الحفصي ، وملك ابن الأحمر ألمرية، وامتد سلطانه إلى سائر الشواطئ الجنوبية[4] .

وكان من أعظم أعوان ابن الأحمر، أصهاره بنو أشقيلوله وهم أسرة قوية نهابة من المولدين ، وكان كبيرهم أبو الحسن بن أشقيلوله من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته، فانحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة ، إذا تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف بن الأحمر وتزوج ولده أبو محمد عبد الله بن أشقيلولة من أبنته ، ولما استقام الأمر لابن الأحمر، ندب صهره أبا الحسن لحكم وادي آش[5] وندب أبا محمد إسماعيل بن يوسف (الأحمر) لحكم مالقة، ولما توفى أبو الحسن خلفه في حكم وادي آش ولده أبو إسحق ، وتمكن نفوذ بني أشقيلة في الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر[6] .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة ، من غمر الفوضى التي سادت الأندلس، وحظي ابن الأحمر بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي ولاسيما في الجنوب، واستطاع ابن الأحمر أن يثبت حدود إمارته الجديدة التي تبدأ عند مصب نهر المنصورة شرقي ألمرية وقاعدة بيرة على البحر المتوسط في الشرق ثم تتجه غرباً فتشمل جيان وبياسة وإستجة ثم تنحدر جنوباً بغرب بعد ذلك إلى روطة ثم يعبر نهر شنيل وهو فرع من الوادي الكبير يسير جنوباً بغرب، ثم يتفرع من ذلك الفرع نهر حداره ثم تسير الحدود شرقي مرشانة ثم تسير في خط متعرج نحو الجنوب في غربي بلدة طريف بقليل[7] .

وهذه القطعة من أرض الأندلس التي أقام فيها ابن الأحمر دولته تعدل ثمن مساحة شبه الجزيرة الأيبيرية، وكانت مملكة غرناطة هي رابع القوى السياسية في الأندلس بعد ممالك قشتالة وأرغونه والبرتغال ، والسبب الحقيقي لامتداد عمر هذه المملكة لمدة قرنين ونصف كان يكمن في النزاعات بين الممالك النصرانية الثلاث وفي النزاعات داخل المملكة الأساسية قشتالة ، وكانت غرناطة تتدخل أحياناً في هذه النزاعات وتناصر فريقاً على آخر[8] .

2- ابن الأحمر والقوى النصرانية بالأندلس:-

كان ابن الأحمر من جانبه بقدر خطورة المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه، وكان يضطرم عزماً وإحتداماً لمحاربة النصارى، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم، فما كاد يستقر في غرناطة حتى نشط في محاربة النصارى وكانوا قد عاثوا في أحواز جيان وخربوها، وسار إلى قلعة مرتش – بلده حصينة تقع على مقربة من جنوب غربي مدينة جيان – في قوة كبيرة، وضرب حولها الحصار عام 636هـ / 1238م، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة، وأضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار، ثم أشتبك في معركة حامية مع النصارى، وكان يقودهم ردريجو ألفونسو ، وهزمهم ابن الأحمر هزيمة شديدة ، قتل فيها قائد مرتش، على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة في سير الحوادث، وكان فرناندو الثالث يراقب نهوض هذه القوة الغرناطية بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها، فما كان ينتهي من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر، وكان يتوق إلى الانتقام لموقعة مرتش، وبعث لقتاله جيشاً قوياً بقيادة ولده ألفونسو، وعاث النصارى في منطقة جيان واستولوا على حصن أرجونه موطن بني نصر (الأحمر) وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها عام 642هـ / 1244م ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة ، وفي العام التالي زحف النصارى على جيان وحاصروها، حتى كادت تسقط في أيديهم ، فلما رأي ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة، أثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه في معسكره، وقدم إليه طاعته وعلى أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون قطعة من الذهب، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي باعتباره من الأمراء التابعين للعرش [9] .

وعلى هذا الأساس سلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر . رهينة بحسن طاعته، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها[10] ، وفي مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة، وأقره على ما بقى بيده من القواعد

والحصون، وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان، وتطلع ابن الأحمر إلى ظرف أفضل يستطيع فيها التضال والصمود[11].

وفي تلك الفترة العصيبة، كانت الفتنة تمزق ما بقي من أوصال الأندلس، حيث كان فرناندو الثالث يتأهب في تلك الآونة، لغزو مدينة إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية ، واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله، أن يقنع معظم أصحاب الحصون المجاورة لإشبيلية بتسليمها لملك قشتالة، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية، ولم تأت أواسط عام 1247م / 645هـ حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون المجاورة لإشبيلية ، وبدأ النصارى حصارهم لاشبيلية في أغسطس عام 1247م / جمادي الأول عام 645هـ وحشد فرناندو حول المدينة المحاصرة قوات عظيمة حشدت في سائر أنحاء قشتالة، ورابط أسطول قشتالي قوي في نهر الوادي الكبير إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها ، وتبرر بعض الروايات الإسلامية موقف ابن الأحمر (كان يرمي بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل أشبيلية لخذلهم إياه ورفضهم طاعته)[12] ، وطال حصار أشبيلية لمدة ثمانية عشر شهراً إلى أن سقطت في يد ملك قشتالة في 23 ديسمبر عام 1248م/ أوائل رمضان 646هـ ، ودخل فرناندو الثالث مدينة أشبيلية في موكب عظيم، وفي الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة، وتفرق معظم أهلها المسلمين في الحواضر الإسلامية الباقية ولا سيما غرناطة[13].

على أن ابن الأحمر لم يكن يعتزم المضي في ذلك المسلك المؤلم إلى النهاية، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر ، بأن يحطم هذه الأغلال التي صفدته بها محالفة النصارى ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر إلى إخوانه في الدين في عدوة المغرب حيث يرى في ملوك العدوة، عضداً له فيمته في مغالبة النصارى وكانت حوادث المغرب تتمخض في ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هي دولة بني مرين [14] ، التي أرسلت كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس، وعبر القائد أبو معروف محمد إدريس بن عبد الحق المريني ، وأخوه الفارس عامر، البحر نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، وجهزهم أبو يوسف يعقوب بن

عبد الحق سلطان بني مرين، حيث أستطاع الفارس عامر انتزاع شريش من يد النصارى[15].

وقد كانت بارقة أمل متواضعة، ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى ، ذلك أن ملك قشتالة (الفونسو العاشر) خشي هذه المبادرة على خططه وغزواته ، وخشي بالأخص أن تتضاعف الإمداد من وراء البحر فيشتد ساعد ابن الأحمر ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبته وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية، ففي أواخر عام 662هـ/ 1263م تنازل ابن يونس صاحب مدينة استجة عنها إلى النصارى ودخلها قائد القشتاليين، فأخرج المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منها وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان، وفي العام التالي ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على غزو ما بقي من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف إلى نواحي الأندلس وعادت الرسائل تتوالي على أمراء المغرب وزعمائه ، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس ، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، فأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس، فبعث إليه المستنصر هدية ومالا لمعاونته، ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة[16].

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة عام 665هـ / 1267م في مقابل تنازله عن عدد كبير من البلاد والحصون، منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها، وقيل ما أعطاه ابن الأحمر من الحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع، ومعظمها في غرب الأندلس[17] . وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها في نحو ثلاثين عاماً (627 – 655هـ / 1228 – 1257م) في ظروف سيئة من محن وكوارث ألمت بالمسلمين بالأندلس ، وقد أثارت هذه المحن التي توالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمة لوعة الشعر والأدب، ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي ، مرثيته الشهيرة، والتي ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية وأبلغها تأثيراً في النفس [18].

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة من حكمه في توطيد مملكته وإصلاح شئونها ، حيث أختار لولاية عهده ولده محمد أكبر أولاده عام 652هـ / 1266م ، ولم تقع في تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً إلى

عام 668هـ / 1269م حيث سار ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها فساداً ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ونصرة إخوته ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة إذ توفى بعد ذلك بقليل أي في التاسع والعشرين من جمادي الثانية عام 671هـ / ديسمبر 1272م على أثر سقوطه من على ظهر جواده حين عودته من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على قصر الحمراء ، فحمل جريحاً إلى أن توفى وقد قارب الثمانين من عمره ، وتولى أبنه من بعده وهو محمد بن يوسف بن نصر المكني بالفقيه [20] ، فأرسل وفداً من أكابر الأندلس إلي سلطان المغرب أبو يوسف برسالة استغاثة ،وخرج أبو يوسف من فاس في رمضان عام 673هـ / 1286م برسم الجهاد بالأندلس [21] .

3- دور أبي يوسف وابن الأحمر في الجهاد الأندلسي :-

نظر المرينيون إلى الميدان الأندلسي على أنهم ورثة للموحدين، لذلك فكروا – بعد إتمام استيلائهم على المغرب الأقصى – في استئناف سياسة الجهاد ضد نصارى أسبانيا ، كما كان يفعل أسلافهم من المرابطين والموحدين . والمرينيون بهذه السياسة يتميزون عن معاصريهم من الحفصيين[22] وبني عبد الواد[23]، فالحفصيون وبنو عبد الواد لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد في الميدان الأندلسي[24] .

وبدأ المرينيون عملهم في الميدان الأندلسي فور عودة أبي يوسف من فتح سجلماسة، فقد صادفت عودته وصول وفد من شيوخ الأندلس يحمل رسالة من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة وتشرح هذه الرسالة تدهور أوضاع المسلمين في بلاد الأندلس، وتكالب العدو عليهم، وتطلب النجدة والعون من بني مرين[25] .

أحسن أبي يوسف استقبال الوفد وقرر تلبية نداء المسلمين والإسراع إلى نجدتهم، ورأي أبو يوسف أن يبدأ جهاده في الميدان الأندلسي . بحملة استطلاعية جعل ابنه أبا زيان منديل قائدا عليها ، وتكونت هذه الحملة من ثلاث آلاف مقاتل أو يزيد[26] ، وقد هيأ لها أبو يوسف كل عوامل النجاح حيث أشرف بنفسه على كافة الاستعدادات اللازمة لها فخرج من فاس في شوال سنة (673هـ / 1174م) قاصداً طنجة، ومن هناك أرسل إلى الفقيه أبي القاسم العزفي يأمره بتعمير الأساطيل لجهاد المشركين، وإصلاح الأجفان وإعدادها لجواز المجاهدين[27]، وتخير أبو يوسف جنود الحملة من أنجاد بني مرين وفرسان

العرب ، وهيأ هم للقتال ، وأعطاهم رواتبهم ، ودفع إليهم رايته المنصورة ، وأوصى ولده بتقوى الله تعالى في السر والعلانية [28].

عبرت الحملة من قصر المجاز ونزلت بطريف من بلاد الأندلس ، وقامت بشن غاراتها على أرض النصارى حتى وصلت في تقدمها إلى شريش ، ثم عاد أبو زيان إلى الجزيرة مثقلا بالغنائم والسبي من النصارى[29]، وقد شجعت هذه النتائج الأولية لهذه الحملة أبا يوسف على العبور بنفسه على الميدان الأندلسي .

أ- العبور الأول:

قبل أن يعبر أبو يوسف إلى الأندلس بعث حفيده تاشفين بن أبي مالك إلى يغمراسن ابن زيان يطالبه بعقد الصلح حتى يعبر أبو يوسف إلى الأندلس وهو مطمئن إلى أن يغمراسن بن زيان لن يقوم بالإغارة على حدود دولته ، فوافق على هذا العرض ، وتم الصلح بين الطرفين [30] وقد أثمرت هذه السياسة التي انتهجها أبو يوسف إذا أحدثت جوا من الاستقرار والهدوء في سائر بلاد المغرب ، ونقلت مجال العمل العسكري للمرينيين إلى الميدان الأندلسي . وقد سعد أبو يوسف بهذا الصلح كثيرا حتى أنه تصدق بأموال كثيرة شكرا الله على وحدة كلمة المسلمين [31].

وأضاف أبو يوسف إلى هذه السياسة الحكيمة ألوانا أخرى من السياسة الناجحة ، إذ عمد هذا السياسي البارع إلى توجيه طاقات القبائل العربية – التي كانت من قبل في أيام الموحدين تنتهج سياسة الإفساد في البلاد، وقطع الطرق، ونسف الأخضر واليابس – إلى الجهاد المقدس دفاعا عن الإسلام والمسلمين في الميدان الأندلسي . فقد حشد أبو يوسف قواته في قصر المجاز، وكان ضمن هذه القوات معظم هذه القبائل العربية من سفيان والخلط والعاصم وبني جابر والأثبج وبني حسان ورياح وجميع قبائل البربر وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة [32].

وكان أبو يوسف يجوز في كل يوم قبيلة من هذه القبائل العربية ومن بني مرين وطوائف من زناته والموحدين . وعبر أبو يوسف في الحادي والعشرين من صفر سنة (674هـ / 1275م) فنزل بساحل طريف[33] وكان أبو يوسف قد اشترط على السلطان محمد الفقيه (ابن الأحمر) حينما استنجد به أن يتنازل للمرينيين عن بعض الثغور والقواعد الساحلية، لتنزل بها القوات المرينية ،

فتنازل له ابن الأحمر عن رنده وطريف والجزيرة الخضراء[34]، وكان والده الشيخ أبو عبد الله بن الأحمر قد أوصاه عند وفاته أن يستدعى أمير المسلمين أبا يوسف للجهاد، ويعطيه ما يريده من البلاد[35].

اتجه أبو يوسف من طريف إلى الجزيرة الخضراء حيث عُقد هناك مجلس للحرب ضم أبو يوسف وابن الأحمر وابن أشقيلولة[36]، وعلى الرغم من أن صاحب روض القرطاس" يذكر أن أبا يوسف نجح في إنهاء الخلاف الذي كان بين محمد الفقيه (ابن الأحمر)، وبين ابن أشقيلولة"[37] فإن ابن خلدون يذكران أن الخلاف بينهما ظل موجودا وأن ابن الأحمر غادر الجزيرة الخضراء غاضبا إلى غرناطة، ويبدو أن رأي ابن خلدون والسلاوي هو الأقرب إلى الصحة لأن تصرفات ابن الأحمر واتصالاته المريبة بالنصارى بعد الانتصارات الأولى التي أحرزها أبو يوسف تشير إلى ذلك، فقد عطر ابن الأحمر رأس القائد النصراني ذنونه دون نونيو دي لارا بالمسك وأرسله إلى بلاط قشتالة وهذا يحمل في طياته عدم رضاه عن تصرفات أبي يوسف[38]. وقد أكد ابن الخطيب ذلك إذ ذكر أن الاجتماع أفضى إلى وحشة كبيرة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر[39].

لم يعبأ أبو يوسف بهذه الخلافات الشخصية، وانطلق يؤدي مهمته في تحرير الأراضي الإسلامية فنفذ بجيوشه الجرارة إلى الوادي الكبير قبل أن يشعر به العدو، وكون مقدمة استطلاعية قوامها خمسة آلاف جندي جعل على قيادتها ولده الأمير يوسف، وسار هو خلفه بالقوات الرئيسية، وانتشرت الجيوش في أرض الوادي تقتل وتأسر وتنسف الزروع وتخرب الضياع، حتى وصلت هذه القوات إلى حصن المدور وبياسة وابذة بالقرب من قرطبة، واستولى على حصن بلمة بالقوة[40]، وامتلأت أيدي بني مرين بالغنائم فأمر أمير المسلمين بجمع المغنم ، فجمع البقر والغنم والخيل والدواب والعلوج والروميات والذراري والثياب والعتاد فتألف منها ما ملأ السهل والوعر ولا يحويه عدد ولا حصر[41].

اقترب أبو يوسف من استجه ، ووصلته الأخبار بتقدم النصارى نحوه بقيادة ذننه المعروف في الروايات الأسبانية باسم (نونيو دي لارا). وقدرت بعض الروايات جيشه بثلاثين ألف فارس ، وستين ألف راجل[42] . واستطاع أبو يوسف أن يبدد هذا الجيش بين قتيل وأسير وفار في يوم السبت الخامس عشر

من شهر ربيع الأول سنة (674هـ / 1275م)[43]. وذكرت بعض الروايات أن عدد القتلى بلغ ثمانية عشر ألف قتيل[44]، بينما تذكر الأخرى أن القتلى كانوا ستة آلاف من النصارى وثلاثين من المسلمين[45]، وقتل في المعركة القائد النصراني ذننه وقطعت رأسه وأرسلت إلى ابن الأحمر الذي عطرها بالمسك وأرسلها إلى بلاط قشتالة تقرباً إليهم[46] وقد أطلق بعض المؤرخين على هذه الموقعة (غزاة دونونه) للنصر الساحق الذي أحرزه المسلمون على هذا القائد النصراني.

عاد أبو يوسف إلى الجزيرة الخضراء بعد هذه المعركة الناجحة حيث قسم الغنائم بين المحاربين وجعل خمسها لبيت المال وبعد أيام خرج أبو يوسف بجيوشه مرة ثانية وأتجه في هذه المرة إلى أشبيلية، ونزل بظاهرها عند موضع يعرف (بالماء المفروس) ويبدو أن جولة أبي يوسف في هذه المرة كانت للتعرف على مسارح العمليات الحربية في الميدان الأندلسي، ومن ناحية أخرى لاستعراض قوى المسلمين وإشاعة الرعب والفزع في نفوس النصارى، فقد وقف أبو يوسف أمام أبواب أشبيلية وطبوله تخفق وبنوده ترفرف، والنصارى ينظرون إليه في رعب من فوق الأسوار، بينما باقي قواته تدمر المناطق المحيطة بأشبيلية وتخربها[47] ، وأحدث أبو يوسف في شريش ما أحدثه في أشبيلية وعاد إلى الجزيرة الخضراء حيث أمر ببناء مدينة البنية لتكون معسكرا للقوات العابرة إلى الأندلس ثم عبر هو إلى المغرب في رجب سنة (674هـ/ 1276م) [48] .

وكان قد سبقه إلى المغرب أخبار انتصاراته العظيمة ، فقد كتب أمير المسلمين أبو يوسف إلى جميع بلاد المسلمين بالأندلس والمغرب يشرح تفاصيل حروبه وانتصاراته على النصارى ، وقرئت هذه الكتب على المنابر ، وأخرج الناس الصدقات ، وأعتقوا الرقاب شكرا لله على النصر ، ونشرت رايات جيوش

النصارى المنهزمة منكسة في أعلى منار القرويين ، ومنار جامع الكتبيين بمراكش [49].

وأسفر هذا العبور الأول عن تثبيت أقدام المرينيين في ثلاثة قواعد رئيسية من قواعد بلاد الأندلس، وهي رندة، وطريف، والجزيرة الخضراء، وتأسيس قاعدة أخرى جديدة وهي البنية، كما أطاح هذا العبور بأحلام نصارى أسبانيا في القضاء على ما تبقى للمسلمين من أراضي في بلاد الأندلس إذ رأوا قوة جديدة تقتحم عليهم ميادين للقتال، كانوا يظنون أنهم متفوقون فيها على المسلمين لا محالة.

ب- العبور الثاني:

في آخر المحرم من سنة (676هـ/ 1277م) عبر أبو يوسف يعقوب إلى بلاد الأندلس للمرة الثاني[50] وترى بعض الروايات أن ذلك كان في سنة (677هـ/ 1278م)[51] وجه أبو يوسف حملته هذه المرة مباشرة إلى أشبيلية[52] وقد عاونه فيها أبو إسحاق بن أشقيلولة صاحب قمارش، وأبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة، وقد نجح أبو يوسف في إيقاع الهزيمة بجيوش أشبيلية التي كان يقودها ابن أدفونش ملك النصارى، وقد فرت بقايا هذا الجيش لتتحصن بالمدينة، ورأي أبو يوسف ألا يضيع وقتا في حصار المدينة، فعمد إلى القضاء على كافة الحصون المحيطة بها، وتدمير كل مظاهر العمران من حول أشبيلية ليوهن قوى النصارى، ونالت شريش من أبي يوسف ضربات لا تقل شراسة عما تلقته أشبيلية[53].

ورأي أبو يوسف أن الخطوة القادمة لمهاجمة قرطبة تحتاج إلى تكاتف جهود سائر القوى الإسلامية في بلاد الأندلس وبخاصة قوى غرناطة ، فراسل ابن الأحمر الذي استجاب لهذه الخطوة من جانب أبي يوسف والتقى به عند قرطبة [54] وقامت الجيوش الإسلامية بمهاجمة قرطبة ، ولم تستطيع الجيوش النصرانية الصمود أمام هذا التحالف القوي فتراجعت وتحصنت بالمدينة[55].

وقد ظهرت نتائج تحالف القوى الإسلامية في الميدان الأندلسي سريعة إذ أرسل ملك النصارى القشتالي وفدا من القساوسة والرهبان يطلب من أبي يوسف الصلح ، ولكي يظهر أبو يوسف لابن الأحمر سلامة نواياه ، وأن أهداف عمله في الميدان الأندلسي ليست إلا العمل من أجل حماية الإسلام والمسلمين قال : (إنما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل[56] . وترك أبو يوسف لابن الأحمر عقد هذا الصلح مع نصارى قشتالة[57] والأكثر من ذلك أن أبا يوسف

عند عودته إلى الجزيرة الخضراء مر في طريقه بغرناطة وهناك تنازل لابن الأحمر عن جميع الغنائم التي أحرزتها جيوشه في هذه الحملة [58].

ولكن هذه العلاقة الطيبة بين أبي يوسف وابن الأحمر سرعان ما تبددت بعد وفاة أبي محمد بن عبد الله بن إشقيلولة صاحب مالقة والحصون الغربية، وقد غضب لذلك ابن الأحمر، لأن مالقة في نظره عمالة من عمالات دولته [59] وعاد أبو يوسف إلى المغرب في سنة (677هـ/ 1278م) [60] والحقيقة التي أظهرتها أحداث هذا العبور الثاني أن ابن الأحمر على الرغم من جدية أبي يوسف في إظهار نواياه الحسنة بالنسبة للوجود المريني في بلاد الأندلس – كان يتوجس خيفة من بني مرين ، ويشك كثيراً في مسلكهم كما أظهرت هذه الأحداث أيضاً عمل أبي يوسف إلى بني أشقيلولة ، نظرا للمعاونة الجدية التي كان يلقاها منهم ، بينما كان ابن الأحمر يبدي تحفظا شديدا فيما يقوم به من عون لبني مرين .

ج- العبور الثالث:

كان لتنازل محمد بن أشقيلولة عن مالقة والحصون الغربية لأمير المسلمين أبي يوسف، ردود فعل عنيفة لدى محمد بن الأحمر، إذ قرر ابن الأحمر التحالف مع القشتاليين ضد أبي يوسف[61] وهذا يعني أن القضية التي كانت تشغل ابن الأحمر ليست هي قضية الدفاع عن الإسلام ضد الزحف النصراني لابتلاع أملاك المسلمين في أسبانيا، وإنما خوفه على ملكه، ورغبته في الاستيلاء على ما في يد بني أشقيلولة من ممتلكات وهذا يعني أن بعد النظر لم يكن متوافرا لدى ساسة غرناطة. وكانت هذه فرصة عظيمة كي ينقض ملك قشتالة الصلح بينه وبين أبي يوسف[62] .

أرسل ملك قشتالة أساطيله إلى الجزيرة الخضراء ، حيث رست هناك بالزقاق ، لتقطع الطريق أمام أية إمدادات تنتقل من المغرب إلى الأندلس ، وفي نفس الوقت هاجمت هذه الأساطيل الجيش المريني الرابض في هذه المناطق[63].

ولم يكتف ابن الأحمر بذلك ، بل أغرى عامل أبي يوسف على مالقة، وأتفق معه أن يتنازل لابن الأحمر عن مالقة في مقابل أن يعطيه ابن الأحمر شلوبانيه والمنكب[64] ووصل ابن الأحمر في هذا الموقف العدائي من أبي يوسف إلى أبعد مدى، فراسل يغمراسن بن زيان وتبادل معه الهدايا ، واتفق الطرفان أن يقوم يغمراسن بمهاجمة حدود الدولة المرينية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس[65] وقد حاول بعض المؤرخين تعليل موقف ابن الأحمر من المرينيين

على هذا النحو بأنه كان يخشى أن يقف منه المرينيون نفس الموقف الذي كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف . وقد سيطرت هذه المخاوف دائما على جو العلاقات بين بني مرين وبني الأحمر[66].

وقد عاصرت تلك الأحداث التي واجهها أبو يوسف المنصور في الأندلس فتن ومؤامرات داخلية في المغرب كثورة مسعود بن كانون، أمير عرب سفيان، كما كان إقليم السوس يعاني من بعض الخارجين على السلطة المرينية[67]، ولكن هذه الأحداث لم تصرف أبا يوسف عن سياسته في الاهتمام بالوجود المريني في الميدان الأندلسي فأمر في صفر سنة (678هـ / 1279م) ولي عهده الأمير يوسف بقيادة حملة بحرية تألفت من أكثر من سبعين سفينة، وتمكنت هذه الحملة من تحطيم الأسطول القشتالي ودخول الجزيرة الخضراء بالقوة، ويذكر ابن خلدون أن أساطيل ابن الأحمر عاونت الأساطيل المرينية، بعد أن رأي ابن الأحمر خطورة تحالفه مع القشتاليين ضد أبي يوسف[68].

وكان لهذه الانتصارات الجديدة للمرينيين في الأندلس صداها في بلاد المغرب، إذ اتجه أبو يوسف بعدها إلى يغمراسن بن زيان – حليف ابن الأحمر والقشتاليين – فقاد أبو يوسف حملة تأديبية ضده وتمكنت هذه الحملة من هزيمة يغمراسن ولاحقته وقضت على مقاومته عند موضع يعرف بالملعب قرب تلمسان[69].

وباستقرار الأوضاع في بلاد المغرب، عادت شئون الميدان الأندلسي تستغرق اهتمام أبي يوسف، وتشكل عنصراً هاما وبارزا في سياسة بني مرين، وكانت مملكة غرناطة تلعب دوراً كبيراً في شئون أسبانيا النصرانية كلما اضطربت الأوضاع الداخلية في البلاط النصراني، ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر، لجأ المتنازعون من أعضاء البيت النصراني إلى مؤازرة غرناطة أو بني مرين [70]وهذا ما حدث في سنة (681هـ/1282م) فقد وصل إلى مراكش وفد من قبل الملك الأسباني هراندة (يطلب معاونته في استرجاع عرشه الذي استولى عليه ولد شانجه[71].

عبر أبو يوسف المنصور إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الثاني سنة (681هـ/ 1282م) وعند صخرة عباد التقى بهراندة (الفونسو العالم). ورأي أبو يوسف في معاونته ضد ولده شانجه (سانشو) فرصة لتعميق الخلاف داخل البيت الحاكم في قشتالة وهي فرصة ثمينة لإضعاف الجبهة النصرانية، يقول ابن

خلدون (فاغتنم (أبو يوسف) الفرصة في فساد بينهم لقضاء إربة من الجهاد)[72]

أمد أبو يوسف المنصور الفونسو العالم بمائة ألف دينار، ليستعين بها على حرب ولده شانجه، وفي مقابل ذلك رهن الفونسو تاجه لدى المنصور ودخل أبو يوسف المنصور معه إلى دار الحرب، التي شهدت معارك طاحنه حول قرطبة وطليطلة وحصن مجريط وعاد إلى الجزيرة مثقلا بالغنائم وخرج من الجزيرة الخضراء سنة (682هـ/ 1283) لاسترجاع مالقة والحصون الغربية من ابن الأحمر، وكادت أن تنشب بين المنصور وابن الأحمر فتنة مستطيرة، لولا أن خشي ابن الأحمر العاقبة، وتوسط لدى الأمير يوسف ولد المنصور لحل هذه الأزمة، وصفا الجو بين الطرفين نتيجة لجهود الأمير يوسف بن يعقوب[73].

وقام أبو يوسف المنصور بجولة حربية أخري في دار الحرب شملت طليطلة وقرطبة ووصل في جولته هذه حتى آبدة وبياسة وجبال البرت وغص جيشه بالسبي والغنائم ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى أحد أحفاده وهو عيسى بن عبد الواحد[74].

د-العبور الرابع:

عبر أبو يوسف إلى الميدان الأندلسي للمرة الرابعة في أول صفر سنة (684هـ/ 1285م)، وتعتبر هذه الحملة من أقوى الحملات التي واجهها القشتاليون إذ بلغ عدد الجيوش من المتطوعين التي عبرت إلى الميدان الأندلسي خلال هذه الحملة ثلاثة جيوش عدا الجيش الرئيسي الذي عبر به أبو يوسف ، والجيش الذي أرسله محمد الفقيه ابن الأحمر لمعاونة أبي يوسف[75] ، وقد بلغ أحد جيوش المتطوعين في هذه الحملة ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة وثمانية آلاف من بربر المغرب [76] وقد سهل هذا العدد الضخم من المحاربين عملية ضرب النصارى في وقت واحد وفي كل مكان. وبالإحصاء يظهر مدى عنف الضربات التي وجهها أبو يوسف لدولة قشتالة خلال هذه الحملة فقد بلغ عدد ما هو جم من المدن والحصون خلال فترة هذه الحملة اثنتي عشرة مدينة، وكان الجهد الحربي الرئيسي لهذه الحملة مركزاً على مدينة أشبيلية، باعتبارها

عاصمة قشتالة، ومقر البلاط القشتالي – ومدينة شريش باعتبارها قاعدة رئيسية لهذه الدولة – وتمثل في نفس الوقت مصدر خطر مباشر على المسلمين في بلاد الأندلس ؛ وقد ظلت شريش محاصرة طيلة فترة وجود أبي يوسف في هذا العبور الرابع[77] أما أشبيلية فقد هاجمتها جيوش أبي يوسف خلال هذه المدة القصيرة أربع مرات، حتى أصاب أهلها الفزع والهلع ووضع أبو يوسف بعد ذلك فرقة مكونة من مائتين من الجنود لمراقبة المدينة والتجسس عليها والتقاط أخبارها[78].

كما أشترك الأسطول المريني في هذه الحملة ، وكانت مهمته منع سفن الأسطول القشتالي من الاقتراب من ممر العبور بين المغرب والأندلس واستطاعت سفن الأسطول المريني التي كانت تتكون من ست وثلاثين سفينة من القيام بمهمتها على خير وجه [79].

وقد حال دون استمرار الحملات المغربية في بلاد الأندلس حلول فصل الشتاء، وكان أبو يوسف المنصور يفضل ألا يخوض بجنوده الحرب في طقس غير مأمون العواقب، ومن ناحية أخرى فإن الميرة والأقوات تشح في ذلك الوقت. لذلك أضطر أبو يوسف المنصور إلى فك الحصار عن شريش وعاد بجيوشه إلى الجزيرة الخضراء[80].

ويصور ابن خلدون ما ألحقته هذه الحملة بالعدو من أضرار بالغة بقوله : (فلا يخلو يوما عن تجهيز عسكر أو إغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونه وأستجه وجبال الشرق وجميع بسائط الفرنتيرة [81])

ورأي شانجه أنه لا قبل له بحرب أبي يوسف المنصور فأرسل وفدا من القساوسة والرهبان وزعماء النصارى لطلب الصلح[82] . وقد تردد هذا الوفد على الجزيرة الخضراء – مقر أبي يوسف – مرتين، وأخيرا تم عقد الصلح على

أساس شروط وضعها أبو يوسف وقبلها شانجه ملك قشتالة[83] وجاءت بنود هذا الصلح دليلاً على السيادة الكاملة للمرينيين على الموقف في الميدان الأندلسي، وقد أجمل ابن أبي زرع بنود هذا الصلح فيما جاء على لسان الشيخ عبد الحق الترجمان – الذي أوفده أبو يوسف إلى شانجه حاملا شروط الصلح – حيث قال لشانجه: (يقول لك أمير المسلمين لا أسالك ولا أترك حربك وغزو بلادك إلا على شروط منها أن لا تتعرض بعد هذا البلد من بلاد المسلمين، ولا لجفن من أجفانهم ولا تصلهم بإذاية في بر ولا بحر، كان ذاك من أهل طاعته أو غيرهم، وتكون أنت لي بمنزلة الخد يم فيما أمرك به وأنهاك عنه، وأن يكون المسلمين يسيرون في بلادك لتجارتهم وطلب معاشهم بالليل والنهار ولا يتعرض لهم بشر ولا يلزمهم درهم ولا دينار، ولا تدخل بين سلاطين المسلمين بلفظة واحدة ، ولا تعقد مع أحد منهم محاربة)[84] وقد حضر شانجه بنفسه لمقابلة أمير المسلمين أبي يوسف، فاجتمع به في حصن عين الصخرة على مقربة من (وادي لك) وتم الصلح بينهما في العشرين من شعبان سنة (684هـ / 1285م)[85] .

واستكمالا لمظهر السيادة المرينية على ما بأيدي المرينيين من أراضي أندلسية أرسل أبو يوسف المنصور ولده أبا زيان بجيش ليقف به على الحدود (بين بلاده وبلاد الأحمر وأمره أن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثا ولا يتوصل لها بأذاية ولا مضرة)[86] .

وما لبث أبو يوسف قليلا حتى مرض ووافته منيته وهو بقصره من مدينة البنيـة بالقرب من الجزيرة الخضراء في العشرين من محرم سنة 685هـ/1286م[87] ونقل جثمانه إلى رباط الفتح حيث دفن بمسجد شالة[88] .

ويعتبر أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك الغرب فقد كان بشغفه وحرصه على الجهاد، ووفرة جيوشه واستعداداته، يعيد إلى الأذهان ذكرى أسلافه العظام من أمثال يوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، ويعقوب

المنصور[89] وقد استطاع أبو يوسف من خلال هذه الجولات الأربع أن يوسع رقعة دار الحرب في الميدان الأندلسي، فوصل إلى أحواز طليطلة وقرطبة[90]، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك إلى مجريط وهي قريبة من آخر حيز وصل إليه الإسلام في بلاد الأندلس [91].

4- دور مشيخة الغزاة في الجهاد بالأندلس:-

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق لرد الخطر النصراني القادم من مملكة قشتالة وغيرها، ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة في العاصمة غرناطة[92]، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة المجاهدين وفي ذلك يقول ابن خلدون (والمطوعة من قبائل المغرب وتولى هؤلاء موسى بن رحو وابن عمه عبد الله بن عبد الحق ووصلوا إلى الأندلس 661هـ / 1262م، كما انتقل إلى الأندلس للانضمام إلى المجاهدين من أبناء ملوك المغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان بن محمد بن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد ، وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة 676هـ/ 1277م فامتلأت الأندلس بأفيال زناته وأعياص الملك منهم ، وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسنان بنو عبو بن أبي بكر بن حمامة، ومنهم سليمان وإبراهيم ، وكانت لهم آثار في الجهاد ومقامات محمودة)[93].

وتولى بنو العلا – من أقارب السلطان المريني – قيادة المشيخة ، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء[94] ، إلى أن استشهد في إحدى الغزوات وذلك في سنة 693هـ/1293م ثم عقد السلطان أبو عبد الله المخلوع القيادة لأخيه عثمان بن أبي العلا على حامية مالقة وغربيها ، فلبث في منصبه إلى أن وقع الخلاف بين سلطان غرناطة وسلطان المغرب أبي يوسف المريني وقام عثمان أبي العلاء بدور كبير، أثناء الصراع بين غرناطة والمغرب عندما أوعز أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع، إلى عمه وصهره الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة في الضفة الأخرى من البحر – في المغرب – على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر في الوقت نفسه لمحاربة سلطان المغرب ، وجهز الرئيس أبو سعيد

حملة بحرية في مياه مالقة [95] وتحركت إلى أن استولت على سبتة ، فافتتحها بأساطيله وجنده واستولى عليها عام 706هـ/ 1306م بخيانة بعض أهلها ولم يكتفي بتخريبها بل أجلى أعيانها وأغنيائها وقبض على ولاتها من بني العزفي وأرسلهم أسرى إلى غرناطة [96]، وهم سلطان المغرب أبي يعقوب لكن الأجل لم يمهله إذ اغتاله العبيد[97].

وغضب سلطان المغرب أبو ثابت عامر (706 – 708هـ / 1306 – 1308م) من هذا التدخل الغرناطي في شئون بلاده وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان[98] ، جنوبي سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبتة ولم يعيش السلطان أبو ثابت طويلاً لكي يحقق آماله، ولكن ابنه أبو الربيع سليمان (708 – 710هـ / 1308 – 1310م) واصل سياسته، وأثناء ذلك الحين كان رئيس مشيخة الغزاة عثمان ابن أبي العلا المريني يتوغل بجنده – المقرر لمحاربة النصارى في الأندلس –في شمال المغرب، وكان هذا الجندي الجريء يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب، ويعتمد في تحقيق مشروعه على أنه سليل بني مرين، ولما توغل بجنده جنوباً، دعا لنفسه بالملك واستولى على بعض الحصون مثل تازة، وخاطب قبائل غمارة، وزاد خطره واستفحل أمره، وتقدم له السلطان سليمان أبو الربيع ودارت معركة بين الطرفين هزم فيها عثمان، وقتل من الأندلسيين عدد جم ، وخشي عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة، وتابع السلطان أبو الربيع سيرة إلى فاس واستقام له الأمر[99].

وفي ذلك يقول ابن خلدون (فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة يمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلا التي كادت تلج عليه ممالكه بالمغرب ، ويرده على عقبه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر ... فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة ولما انتهى إلى قصر كتامه تلوم به ثلاثاً حتى توافدت عساكره وحشوده، وكمل اعتراضها وفر عثمان بن أبي العلا أمامه، وارتحل السلطان – سليمان أبي الربيع – في إتباعه فنازل حصن علودان واقتحمه عنوة، واستلم به زهاء أربعمائة ، ثم نازل بلد الدمنة، واقتحمها وأثخن فيها قتلاً وسبياً لتمسكهم بطاعة ابن أبي العلا ومظاهرتهم له، ثم كبس القصر واستباحه ، ثم ارتحل إلى طنجه واحتل بها غرة ثمان وسبعمائة، ونحجز ابن أبي العلا بسبتة

مع أوليائه... واجتاز عثمان بن أبي العلا إلى العدوة فيمن معه من القرابة، فلحق بغرناطة[100].

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة حيث قامت ثورة ضد محمد المخلوع يقودها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ومن ورائه رهط من أكابر الدولة حيث سئموا نظام الطغيان الذي فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم الذي كان مصيره القتل يوم عيد الفطر من عام 708هـ/1309م واعتقلوا محمد المخلوع وأرغموه على التنازل عن العرش وتوليه أخوه نصر بن محمد مكانه في الملك ، ونفي المخلوع إلى حصن المنكب ، أستمر بها أسيراً لمدة خمس أعوام إلى أن توفى عام 713هـ / 1313م[101].

ورأي سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر، فعبر إلى سلطان المغرب أبي الربيع سليمان ، وتنازل له عن مدينتي رنده والجزيرة الخضراء، ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت السلطان أبي الربيع سليمان [102]، ثم رأي سلطان غرناطة، بعد أن ألقي عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورنده، أن يتقرب إلى ملك قشتالة فرناندو الرابع، ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراغون، غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب ففي عام 709هـ / 1309م هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه، ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولاً احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها، وفي الوقت نفسه حاصر ملك أراجون خايمي الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية[103].

بذل النصارى لاستيلاء على المرية جهوداً فادحة، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة، وحفروا في أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها، فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ، ونشبت على مقربة من المرية معركة بين جند الأندلس بقيادة زعيم مشيخة الغزاة عثمان بن أبي العلاء وجند أرجون، فهزم النصارى، واضطروا إلى رفع الحصار، ونجت ألمرية من خطر السقوط ، ولكن جبل طارق لم يسلم من الحصار إلى أن سقط في يد النصارى بعد حصار دام أشهر أضنى الحصار المسلمون وأرغموا على التسليم عام 709هـ/ مارس1310م [104].

وفي عام 713هـ / 1314م حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها أبي الجيوش نصر ونفيه إلى مدينة وادي آش وتولية ابن

عمه الوليد إسماعيل الأول (713 – 725هـ / 1314 – 1325م) وقد حاول السلطان إسماعيل أن يحافظ على العلاقات الودية التي تربط غرناطة بقشتالة وأرجون ، غير أن محاولته باءت بالفشل وخصوصاً مع قشتالة التي أظهرت تأيدها للملك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على غرناطة [105].

وجلس على عرش غرناطة بعد ذلك أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر في شوال عام 713هـ / 1314م وامتاز عصره بتوطيد الملك، واستقرار الأمور، وإحياء عهد الجهاد وفي أوائل عهده غزا القشتاليون كعادتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون، وهزموا المسلمين في وادي فرتونة 716هـ / 1327م ولما رأي القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا احتلال الجزيرة الخضراء ليحولوا دون وصول الإمداد إلى المسلمين بالأندلس من بر العدوة (المغرب) ولكن السلطان إسماعيل بن الأحمر بادر إلى تحصينها وحمايتها من البحر، فعدل القشتاليون عن مشروعهم، ووجهوا هجومهم على غرناطة نفسها، وبادر إسماعيل ابن الأحمر بطلب المدد من سلطان المغرب (أبي سعيد المريني) فنكل عن معاونته، وطلب بتسليم شيخ الغزاة عثمان بن العلاء لما كان منه في حق بني مرين، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب، وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم، يقوده الدون بيدرو والدون خوان الوصيان على الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعهما عدد من الأمراء القشتالين، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير انجليزي، فبادر المسلمون إلى لقائهم في هضبة البيرة على مقربة من غرناطة، وكان الجيش الغرناطي لا يجاوز ستة أو سبعة آلاف جندي، وكان قائد شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وفي 20من ربيع الثاني عام 718هـ / مايو 1318م التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى، وردوهم بخسارة فادحة، ثم زحف أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء في نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة، فمزق القشتاليون شر ممزق، بينهم دون بيدرو ودون خوان [106]، وغرق منهم عند الفرار في نهر شنيل عدد كبير، واستمر القتال ثلاثة أيام، وخرج أهل غرناطة يجمعون الأسلاب والأسرى، وظفر المسلمون بغنائم كثيرة، وكان معظم الفضل في إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وشيوخهم بني العلاء [107].

كما كان لمشيخة الغزاة الدور الكبير في بعض القلاقل بالأندلس حيث أخذوا يتنازعون السلطان محمد بن إسماعيل الأحمر في تصرفاته، ولما توفى شيخ

الغزاة عثمان ابن أبي العلاء عام 729هـ/ 1328م عين مكانه في المشيخة ولده أبو ثابت عامر، فاستمر يمارس سلطان أبيه ونفوذه، وتدخله في شئون الحكم، وكان يوازره إخوته إدريس، ومنصور، وسلطان وبدأ ابن الأحمر يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه في شأنهم وفي سبيل الخلاص منهم ، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً، فأتمروا به للتخلص منه قبل أن يبطش بهم، ولحق به المتآمرون حين عودته واغتالوه طعناً بالرماح، وتركت جثته في العراء حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها[108].

وفي عهد السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل نشبت في غرناطة ثورة عام 760هـ/ 1359م فقد فيها السلطان ملكه، وكان أخوة إسماعيل المعتقل في بعض أبراج الحمراء، تؤازره جماعة من الزعماء، وفي مقدمتهم صهرة الرئيس عبد الله وتدعو له سراً وتترقب الفرصة للوثوب بالسلطان محمد، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاد السلطان عن دار الملك وهاجموا حصن الحمراء (28 رمضان 760هـ / 12 ديسمبر 1358م) ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخي السلطان ملكا مكانه ، وشعر السلطان محمد بعقم المدافعة ، ففر إلى وادي آش ، فأول عمل قام به السلطان الجديد إسماعيل عزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر بن رحو من منصبه والقبض عليه، وعين مكانه في مشيخة الغزاة، إدريس ابن عثمان بن أبي العلاء ، وكان وقت نكبة أسرته، قد فر إلى أراجون واحتمى بملكها ، فاستدعاه السلطان الجديد، وأسند إليه منصب أسرته القديم[109] . وفي ذلك يقول ابن الخطيب (شيخ الغزاة على عهده يحيى بن عمر بن رحو إلى الثالث عشر من رمضان عام أربعة وستين وتقبض عليه وعلى ابنه فأركبه الأدهم الحرون وأسكنه الطبق بقصبة المنكب فأستلبه جاهاً عريضاً وملكاً كبيراً واحاق به مكروهاً يسيراً)[110].

وكانت تربط السلطان المخلوع مودة وصداقة بسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المريني، فأرسل إلى غرناطة سفيراً نجح في الرجوع بالسلطان المخلوع ووزيره ابن الخطيب إلى المغرب عام761هـ/1359م وأستقبلهما أبو سالم في فاس أجمل استقبال، وفي أثناء ذلك حدث انقلاب لقي فيه السلطان أبي سالم مصرعه، وأستبد بالسلطة الوزير عمر بن عبد الله، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه في استرداد ملكه، فاستجاب له الوزير، وتهيأت الفرصة بـ قوع الثورة في غرناطة ومقتل منافسه السلطان إسماعيل، على يد المتغلب علي- الرئيس أبي سعيد، فجاز إلى الأندلس ونزل بمالقة، ثم سار إلى رنده، ثم إلى غرناطة

فاستولى عليها، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة، وأسترد محمد ملكه في جمادي الآخر عام 763 / 1361م، وعاد إلى سابق مكانته ونفوذه، وكان في مقدمة ما فعله السلطان محمد (الغني بالله) أن قبض على إدريس بن أبي العلاء وقرابته من الغزاة، وأودعوا السجن، ومحافظة مشيخة الغزاة من بني مرين، وأسندها لابنه وولي عهده الأمير يوسف، فلبث مضطلعاً لها زهاء ثلاثة أعوام، وكان علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو، مقدما على الغزاة في منطقة وادي آش، وكان حينما فقد الغني بالله ملكه، قد صحبه في منفاه ، ولما عاد إلى الأندلس ، عاد معه، فلما فكر الغني بالله في إحياء مشيخة الغزاة ، وبحث عمن يسندها إليه، وقع اختياره على علي بن بدر الدين هذا ، فعينه فيها عام 767هـ/ 1315م، ولكنه ما لبث أن توفي بعد عام فقط من تقليده إياه ، فعندئذ قرر السلطان محمد (الغني بالله) أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته، وصار أمر الغزاة والمجاهدين إلى السلطان مباشرة، وعني بشئونهم بنفسه، وخص القرابة والمضطلعين بها بعطفه وتكريمه. وانتهت بذلك رياسة بني مرين لهذه الخطة الهامة من خطط مملكة غرناطة بعد أن اضطلعوا بها زهاء قرن من الزمان[111].

5- موقعة طريف (741هـ / 1340م):

منذ أن استعاد الأندلسيون عام 733هـ / 1332م بمساعدة بني مرين جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً – إذ سقط في أيدي النصارى عام 709هـ / 1309م – توطدت العلاقة إلا في فترات قليلة كانت تعكر فيها العلاقات بين بني الأحمر وبني مرين من جهة أخرى، وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوانهم في الدين بالعدوة المغربية من بني مرين وكانوا يقومون بالدور[112].

ودرأ للحروب أستطاع سلطان بن الأحمر أبو الحجاج أن يصل إلى أتفاق مع ملك قشتالة ، وأن يعقد معه معاهدة أشترك فيها سلطان المغرب أيضاً أبو الحسن المريني عام 734هـ / 1334م وكان من شروط هذه المعاهدة أن يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات، على ألا تمر قوات مغربية إلى الأندلس اللهم إلا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الأندلس ، وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون[113] .

الفصل الخامس

على أن كل هذه المعاهدات، لم تحل المشكلة القديمة القائمة ، وهى مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الأخيرة بعد- من الذي يسيطر عليه – وانتهز كلاهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسي للسيطرة البرية بعد ذلك ، ورأي سلطان المغرب أبو الحسن المريني أن يستعين في هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنويين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس[114] بينما رأي ملك اقشتالة الفونسو الحادي عشر أن يستعين بأساطيل ملك أراجون، وقد مده بالفعل بدرو الرابع ملك أراجون بأسطول ، بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحيى الحفصي أسطولا من ست عشرة قطعة إلى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية، ويذكر ابن خلدون (واستحسن السلطان أساطيل المسلمين من مرسى العدوة وبعث إلى الموحدين – بني حفص – بتجهيز أسطولهم إليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم ووافى سبتة في ستة عشر من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربه وتونس وبونه وبجاية وتواقدت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي صاحب سبتة يوم فتحها وأمر بالهجوم على أسطول النصارى بالزقاق)[115].

فقد بدأت المعركة في ربيع 740هـ/1340م عندما حاول القائد الأرجواني عبور المضيق والاتصال بقائد الأسطول القشتالي في مياه أشبيلية، عندئذ تصدى له الأسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال، ودارت بينهما معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الأسطول الأرجواني وقتل قائده، وانسحاب فلوله إلى برشلونه بقيادة نائب القائد المقتول، ولاشك أن انسحاب الأسطول الأرجواني من ميدان المعركة، كان ضربة قاضية للأسطول القشتالي، الذي لم يستطع الصمود وحده أمام أسطول المغرب، فمني هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده واستولى المسلمون على بعض قطعه، وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المريني سيداً بلا منازع على مضيق جبل طارق، وصار من السهل عليه نقل قواته إلى الأندلس بلا منازع ولا قيود من جراء المعاهدة المشئومة[116].

بعد ذلك اتجهت أنظار السلطان أبو الحسن المريني إلى الاستيلاء على مدينة طريف الباقية في أيدي الأسبان من ثغور المضيق ، فلو استولى عليها

لصار مضيق جبل طارق كله في يده ، كما صار الطريق أمامه مفتوحاً إلى قادس وأشبيلية، لهذا عول على احتلالها وأجاز إليها بجيوشه وأساطيله التي بلغت مائة وأربعين سفينة منها عدد من السفن الحربية وأحاط بها من كل جانب براً وبحراً في المحرم عام 741هـ/1340م واشترك معه في هذا الحصار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول بجيوشه أيضاً ونزلا بسهل طريف[117].

وكانت الجيوش الأسبانية تتكون من ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر، ملك أراجون بدرو الرابع، ملك البرتغال الفونسو الرابع[118] ، ونفذت الجيوش الأسبانية إلى أعماق غرناطة، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء، ورابط الأسطول النصراني في مياه المضيق بين المغرب والأندلس، ليمنع قدوم الإمداد والمؤن، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين، فشحت الأقوات بين المسلمين، ووهنت قواهم ، وكان الجيش الإسلامي يرابط عندئذ في السهل الواقع شمال غربي طريف على مقربة من نهر (سالادو) الصغير الذي يصب في المحيط الأطلنطي عند بلدة كونيل التي تبعد قليلا عن رأس طرف الغار، وفي يوم 30 أكتوبر عام 1340م 7 جمادي الأول 741هـ نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس، ويقال أن الأندلسيين كانت لديهم في تلك الموقعة آلات تشبه المدافع، وهي الآلات التي تطورت فيما بعد وكانت تسمى (بالأنفاط) وتقدم الفونسو الحادي عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة، فصد في البداية بقوة، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال ولكن حدث أن تسللت حامية طريف النصرانية من الجنوب وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامي، فدب الخلل إلى صفوفه ودارت معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة، وقتل من المسلمين عدد جم، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص في يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروعة، وانتشرت قوات المسلمين وبددت، وفر السلطان أبو الحسن، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله، وأرتد السلطان يوسف بن الأحمر إلى غرناطة، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب، وكان لها أعمق الأثر في المغرب والأندلس[119] .

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين، فغزا قلعة بني سعيد واستولى عليها بعد حصار قصير عام 742هـ/1341م، وكان السلطان أبو الحسن في أثناء ذلك يضطرم ظمأ للانتقام، ويحشد قواته من جديد، ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى مياه مضيق جبل طارق ، وسار بالجيش إلى سبتة، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال أسطوله للقاء المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم (743هـ/ 1342م) وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء ، وسار السلطان أبو يوسف المريني لإنجاد الثغر المحصور، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم ، وبذلك أصبح الثغران المشرفان على مضيق جبل طارق وهما الجزيرة الخضراء وطريف في أيدي النصارى، ولم يبقى في يد المسلمين سوى جبل طارق يؤدي مهمة الوصل بين المغرب والأندلس[120].

ولموقعة طريف أكبر الأثر نظراً لحضور هذه المعركة عدد من العلماء الأكابر والأعلام، واستشهد بعضهم. ممن استشهد:

1- أبو محمد عبد الله بن سعيد السلحاني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب، كما فقد فيها أخو لسان الدين الأكبر، وفي ذلك يقول ابن الخطيب حين الحديث عن والدة في هذه الوقعة الذي كان فيها (وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادي الأول سنة أحدي وأربعين وسبع مائة ثابت الجأش، غير جزوع ولا هيابة، حدثني خطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللوشي قال: كبا بأخيك الطرف، وقد غشي العدو، وجنحت إلى إردافه، فانحدر إليه والدك ، وصرفني، وقال: أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما)[121].

2-قاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد شيوخ ابن الخطيب وعنه يقول تلميذه كان (حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مجلاً لأهله مطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم حوالة معروفاً بنصره من أرز إليه ، تقدم للشياخة ببلدة مالقة ... ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة، وترك الهوادة وإنفاذ الحق ملازماً للقرء... ثم ولي القضاء والخطابة بغرناطة)[122] (واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد – رحمه الله – في مصاف المسلمين، يوم المنازة الكبرى بظاهر طريف ، شهداً محرضاً يشحذ البصائر)[123].

3-و القاسم محمد بن جزي ، وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات وعنه يقول المقري كان (فقيهاً حافظاً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حفظة للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة لكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً للمسجد الأعظم، من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته)[124] فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطرف [125] .وممن حضر هذه الوقعة من العلماء.

4-فقيه الأمام أبو عبد الله محمد بن مرزوق، الذي ولاه السلطان أبو الحسن المريني (752هـ/1351م) عدة أعمال سلطانية تولى سفارات متعددة، منها سفارته إلى بطره (الأول) بن الفونش (الحادي عشر) ملك قشتالة، لعقد الصلح وافتكاك أسرى وقعة طريف[126]، وكان بين الأسرى ابن السلطان أبو عمر تاشفين[127] وابن مرزوق، صاحب مخطوط " المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن " حيث رصد في هذا الكتاب حياة مولاة أبي الحسن من حيث إصلاحاته الإدارية والاقتصادية وغزواته في إفريقية والمغرب الأدنى، والأندلس [128] .

6- سقوط مضيق جبل طارق بأيدي النصارى (867هـ / 1462م):

لبث ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته من إرهاق المملكة الإسلامية والعبث فيها، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية، من قبل الملك البرتغالي خوان الأول (1385 – 1433م) حيث استغل اضطراب أحوال المغرب وهاجم بنفسه مدينة سبتة بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس 1415م / 818هـ وفر حاكمها [129] ، ودخلها النصارى دون عناء ، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها ، لكن أبا سعيد المريني تخاذل ولم ينهض لاستردادها ، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال [130] ، ولكثرة المشاجرات بين ملوك فاس حال دون استرداد سبته[131] .

وفي عام 750هـ / 1349م غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمي بهذه الغزوة الاستيلاء على جبل طارق، وكان هذا الثغر من أمنع ثغور المسلمين نتيجة أهميته في ربط العدوة بالأندلس، فلما

رأي استحالة أخذه عنوة، ضرب النصارى حوله الحصار زهاء عام كامل والمسلمون صامدون، وقد عيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم، ثم فشا الوباء في الجيش النصراني وهلك ملك قشتالة في مقدمة من هلك من جنده، واضطر النصارى إلى رفع الحصار عام (751هـ/ 1350م)[132].

وكان لمصرع ملك قشتالة تحت أسوار جبل طارق صدى عميق حيث ثارت داخل قشتالة حرب أهلية، فوقف المسلمون مع بطره (بدرو القاسي) ملكها (1350 – 1369م) ضد أخيه إنريك، وشارك ابن خلدون في هذه الاتصالات مبعوثاً من سلطان غرناطة (133) ، وانتهز محمد الغني بالله ابن الأحمر (755 – 793هـ / 1354 – 1391م) هذه الفرصة وزحف بجيشه عام 768هـ / 1367م فعاث في أحواز أشبيلية، واسترد في العام التالي الجزيرة الخضراء[134].

وامتدت فترة الهدوء هذه حتى منتصف القرن التاسع/ الخامس عشر الميلادي، حينما غزا المسلمون من جانبهم منطقة جيان وأوقعوا هنالك بالنصارى، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين، وكان النصارى قد استولوا في تلك الفترة المضطربة من حياة مملكة غرناطة، على عدة ثغور وقواعد، بعضها اختياراً بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح ، وكانت أكبر ضربة أصابت مملكة غرناطة في عهد السلطان يوسف الخامس (ابن إسماعيل) سقوط ثغر جبل طارق في يد النصارى عام 1462م / 867هـ حيث سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مرينا سيدونيا، واستولت عليه بطريق المفاجأة وكان سقوط هذا الثغر في يد النصارى، أول خطوة في سبيل قطع العلاقات بين غرناطة وعدوة المغرب والحول دون قدوم الإمداد إليها من وراء البحر[135].

7- نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس:

وفي أثناء هذه الأحداث في الأندلس ، أستطاع محمد الفاتح فتح القسطنطينية سنة 1453م و لينساب التيار الإسلامي العثماني في جنوب شرقي أوربا، فروعت أوربا النصرانية لهذا الفتح الإسلامي الجديد الداهم، فاضطرمت النزعة الصليبية في اسبانية من جديد ضد المسلمين في غرناطة[136]، وساعدها على ذلك الفتن الداخلية، والانقسامات في غرناطة ووحدة اسبانية النصرانية التي بدأت بزواج فرديناند الأراجواني بإيزابيلا وريثة عرش قشتالة بعد منازع، وبعد

موت يوحنا الثاني سنة 1479م، والد فرديناند، أتحدت المملكتان الأسبانيتان الكاثوليكيتان في ظل عرش واحد.

وكان فرديناند هذا رجل الفرصة السانحة، يجنح في سياسته إلى الغدر ومجانبة الوفاء، وكانت زوجه إيزابيلا تجيش بنزعة صليبية، وواقعة تحت تأثير الأحبار المتعصبين، وتتنزل عند تحريضهم، وترتكب أبشع الجرائم باسم النصرانية وهذا الزواج معناه انتهاء مملكة غرناطة[137].

وفي هذه الآونة كانت غرناطة في سلسلة الحروب الأهلية، وعلى عرشها أبو الحسن ولد السلطان محمد بن سعد بن إسماعيل الملقب بالغالب بالله، الذي حاول أن يجدد الهدنة مع قشتالة، ولكن الملكين الجديدين رفضا إلا بعد دفع جزية سنوية، فرفض أبو الحسن طلبهما ، وزحف تواً إلى قلعة الصخرة [138] ، وفتحها سنة 1481م ، وكان هذا النصر بمثابة الأثر في إحياء روحاً جديدة تدب في غرناطة، أما أبو الحسن فلم يلبس أن ركن إلى أهوائه وملذاته وكان أبو الحسن قد تزوج من عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر (139) ، وهي المعروفة باسم " عائشة الحرة " واسمها نجم لامع بالبطولة مع الأسى والشجن في المأساة الأندلسية ، لقد تحلت بشخصية قوية مع سمو في الروح ، مع رفيع القيم والمثل، وقلب جرئ يجابه المحن ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض، إنها ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر ، رزقت من أبي الحسن بولدين هما: أبو عبد الله محمد، وأبو الحجاج يوسف .

كانت عائشة الحرة ترى أنه من الطبيعي أن يؤول الحكم إلى ولدها ، ولكن أبا الحسن الذي ترك الجهاد وعشق حياة الدعة ، غرق في عشق رومية نصرانية تدعى (ثريا) أو (كوكب الصبح) فلما تزوجها أبو الحسن عُرفت عائشة بالحرة تمييزاً لها عن الجارية الرومية ثريا ، أو سُميت بذلك لعفافها أو إشادة بطهرها ورضيع خلالها[140] .

وكمن الخطر في أن أبا الحسن الهرم الذي أثقلته السنون غدا أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء (ثريا)، وهي مع جمالها كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش

الفصل الخامس

أمنع أبراج الحمراء زجت عائشة الحرة مع ولديها، وشدد الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى القسوة والشدة [141].

وبذلك انقسم المجتمع الأندلسي في مملكة غرناطة الصغيرة إلى فريقين :-

1- فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطية الأصل) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

2- وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة) وولديها .

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة 887هـ / 1482م بمساعدة بعض الأصدقاء المخلصين، وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها . وأعلنا الثورة على أبو الحسن وقامت حرب ضروس بين الأب وولديه مات فيها ابنه يوسف[142].

وفي أول مارس 1482م محرم 887هـ احتل المسيحيون بلدة الحمة التي كان أبو الحسن قد ضرب عليها حينئذ حصارا بخمسين ألفا من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان بقصد استردادها ، وقد نجح في ذلك أول الأمر ، بيد أن ماركيز قادش ضون رودريكو عاد بعد ذلك فاحتلها، واحتل كذلك قلعة الصخرة فأصبح سيدها، وحاول السلطان أبو الحسن استرداد بلده الحمة ولكنه لم يستطع ، وبعد أشهر قلائل هاجم ملك قشتالة مدينة لوشة فدافع عنها قائدها الأمير الشيخ علي العطار وانصرف ملك قشتالة مدحوراً ، وكان ذلك في 887هـ / يوليو 1482م ، وفي نفس هذا التاريخ أعلن أبو عبد الله نفسه ملكاً على غرناطة واستجاب لدعوته [143].

وسرعان ما نشبت الثورة داخل غرناطة تعاطفاً مع الملكة الشرعية (عائشة الحرة) وولديها، ففر الملك الهرم – أبو الحسن – إلى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887هـ وعمره 25 سنة.اجتاح بها عدة حصون وقلاع في ربيع الأول سنة 888هـ/ نيسان (ابريل) سنة 1483م، وهزم النصارى في عدة معارك، وكان ذلك بمساعدة حاكم قلعة لوشة علي العطار ولما عاد مثقلاً بالغنائم، داهمه النصارى في ظاهر قلعة اللسانة. وكان يزمع حصارها، فخسر المعركة وأسر على أثرها[144] ، واستقبله القائد الكونت كابرا

(قبرة) وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، فارتاعت العاصمة، ولكن عائشة الحرة احتفظت بهدوئها وسكينتها، حتى أنها قالت لزوج ولدها الفتية ابنة الأمير على العطار معنفة:"إن الدموع لا تليق بابنة مجاهد ولا بزوج ملك، وإن الخطر لأشد على ملك يمتنع بقصره منه حين يأوي إلى خيمته، وإنه لواجب على زوجك أن يشترى سلام عرشه بمخاطر الميدان "[145].

وحاولت غرناطة إعادة أبا الحسن إلى عرشه بدل ابنه الأسير ، ولكن الإعياء هدمه ، والمرض فتك بجسمه الهرم ، فتنازل عن الرش لأخيه محمد أبي عبد الله الزغل حاكم ثغر مالقة ، وأرتد أبي الحسن إلى المنكب وأقام بها إلى أن مات عام 890هـ / 1485م وجعل فرديناند من أسيره أبي عبد الله الصغير ورقة رابحة، وأخذ يدبر أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربه في مملكة غرناطة، حتى أن والده أبا الحسن، لا بباعث الحب والشفقة بل بباعث أن يأمن شر أبي عبد الله الصغير، طلبه مقابل فدية كبيرة عرضها على فرديناند نظير تسليمه له، فأبى فرديناند[146] .

وتقول الرواية الأسبانية عن هذه الفترة: إن أم أبي عبد الله الصغير (عائشة الحرة)عرضت على فرديناند أموالا، وأن يحكم ابنها غرناطة باسم ملك قشتالة مع دفع جزية سنوية، وإطلاق أسرى أسبان في كل عام، وأن يقدم معونة عسكرية لقشتالة كلما طلبت إليه. ولكن فرديناند أراد أن ينفذ برنامجاً حربياً، واستغل بأبي عبد الله الصغير قلة خبرته، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم ليس غير ، فاتخذه أداة رائعة يوجهها كيفما شاء ، فأقنع فرديناند أبا عبد الله الصغير أن الصلح مع قشتالة خير ، فأخذ أبو عيد الله الصغير يرسل من يقنع المسلمين بأن الصلح خير ، وسير فرديناند في اللحظة ذاتها ينتزع ما يمكن انتزاعه من مملكة غرناطة ، فاحتل رندة التي كانت حاميتها بقيادة حامد الثغري زعيم غمارة ، وذلك في جمادي الأول 890هـ/ نيسان (ابريل) 1485م، فهددوا بذلك ثغر مالقة من الغرب ، وحاول القشتاليون احتلال حصن (ملكين) على مقربة من غرناطة ، ولكن أبا عبد الله الزغل ردهم بخسائر فادحة[147] .

ولسوء الطالع، قامت في هذه الأثناء فتنة عاملها الرئيس أبو عبد الله الصغير وحزبه، حيث دعاه حي البيازين (أو ربض البيازين) فشغل أبو عبد الله الزغل بإخماد الفتنة عن مقاتلة الأسبان، وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند

سراح أبي عبد الله الصغير، وبعد أن وقعه معاهدة أعلن بها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس ، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة منذ أوائل سنة 891هـ / 1486م ، وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادي الأولى 891هـ / مايو 1486م، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً:

1. فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى الأسبان .
2. وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأيدهم له .
3. وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه ، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند .

وفي هذه الحروب ضرب القشتاليون الحصون الإسلامية "بالأنفاط " كما ذكر في " أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر":"وكان له أنفاط يرمي بها – فرديناند – صخوراً من نار، فتصعد في الهواء وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل ناراً، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه، فكان ذلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل بها [148] .

والأنفاط سلاح معروف منذ الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي، واستعمله الموحدون لدفع النصارى الأسبان، ولقد أخذ الأسبان سر الأنفاط وطوروه ، وحذقوا في استعماله مع مرور الزمن، ولما غلب الضعف على غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها في السلاح والذخيرة وبخاصة بعد أن فقد معظم قواعدها الصناعية .

ويذكر صاحب أخبار العصر إن النصارى حينما نشبت الثورة في ربض البيازين أمدُوا فريقاً من الثوار "بالرجال والأنفاط والبارود" فالأنفاط التي تنوه عنها الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم إنما هي المدافع ذاتها " وإن تفوق القشتاليين في استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر في التعجيل بإخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها"[149] .

وفي شوال 891هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) 1486م ظهر أبو عبد الله الصغير في ربض البيازين ومن حوله أنصاره، وأمده فرديناند بالرجال والذخائر، المؤن – وبخاصة الأنفاط – فزادت الفتنة اضطراماً، واستغل فرديناند الفتنة القاتلة واحتل " بلش مالقة " على الرغم من استبسال أهلها في الدفاع عن

مدينتهم بمساعدة الزغل، فعاد الزغل منها باتجاه غرناطة ليجدها قد خضعت لأبي عبد الله الصغير، وتبوأ عرشها في 5 جمادي الأولى 892هـ فارتد الزغل إلى وادي آش وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين:

1. غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله الصغير .
2. ووادي آش وأعماله، ويحكمها عمه محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل الذي لم يكن لديه جيش لحماية أرضه فأنضوى تحت وصاية الملكيين الكاثوليكيين[150] .

وتحقق بذلك لفرديناند ما أراده وسعى إليه ، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستسعى بسرعة إلى مصرعها قبل أن تعود إلى وحدة صفها ثانية ، وترك فرديناند أبا عبد الله الصغير الخاضع له ، وبدأ بالأنحاء الشرقية والجنوبية التي تخضع لعمه أبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادي الثانية 892هـ يونيه 1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي[151]، ولم يكن من المنتظر أن تصمد مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892هـ / أغسطس 1487م ، ونكث فرديناند بوعده التي قطعها لأهل مالقة ، فغدر بهم واسترقهم جميعاً ، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين .

لم يكن وضع مصر والسلطان الأشراف قايتباي مما يسمح له بإرسال جيش لإنجاد الأندلس و لتنافسه وتحفظه وحروبه مع سلطان العثمانيين (با يزيد) فاستعمل الضغط السياسي، فاختار راهبين لسفارة مصرية مملوكية، أرسلها إلى البابا أنوصان الثامن وإلى ملوك النصرانية ، أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، الذي ذكر في سفارته في روما ونابولي وقشتالة أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم وتستحل حرمتهم ، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتسفك دمائهم، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وبيت المقدس، وهم ملاين، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات، ولهذا يطلب من ملك قشتالة أراجون الكف عن هذا الاعتداء، وإلا فإن ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص، وغادر القس وزميله مصر إلى الأندلس ، ولم ير فرديناند وإيزابيلا في مطلب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغير خطتهما ، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة:

(أنهما - فرديناند وزوجه إيزابيلا – لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، لكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الأباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منها نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية) (153)

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً لأن الإسلام لا يجيز له ذلك.

وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت ملقة في عام 892هـ/ 1487م، ثم ثقر المنكب والمرية في عام 895هـ/ 1490م، فلم يبق ثقر واحد يصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوه المغرب وبشمال إفريقية وبدأ فرناندو في تنفيذ خطته للقضاء على ما بقي (154).

وتطور سير الأحداث فانضوى الزغل تحت لواء النصارى – على الرغم من شجاعته وبسالته – فقد رأي أنه يغالب المستحيل، ودخل النصارى وادي آش في أوائل صفر 895هـ / كانون الثاني (يناير) 1490م، وبقي الزغل يحكم " وادي آش " تحت حماية ملك قشتالة ، ولم يقبل بهذا الوضع المهين، فجاز البحر إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة آخر القواعد الإسلامية، وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير واقتربت من مصرعها، تنتظر الضربة القاضية (155).

بقيت غرناطة رمزاً لدولة أو مملكة فقط وبدأ هذا المعقل الوحيد الباقي للإسلام في اسبانية ينهار منتظراً نهايته المحتومة.

8- تسليم غرناطة :-

أرسل الملكان الكاثوليكيان – فرديناند وزوجه إيزابيلا – وفدا يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير ، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة ، وأدرك – وربما لأول مرة – فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني وطنه ودينه ، فرفض التسليم ، وقرر الدفاع .واغتاظ فرديناند وسخط فعاث في بسائط غرناطة في ربيع سنة 895هـ/ 1490م، وخرب الضياع والقرى، وجرت ملاحم دموية على أسوار غرناطة ذاتها، وارتحل فرديناند على أثرها، ليرمم القلاع، ويشحن الأبراج القريبة من غرناطة، استعداداً للمعركة القادمة مثل برج الملاحة وبرج وومه

وغيرهما[156]،ودبت روح جديدة في غرناطة عندما ثار أهل البشرات، وغمر البشرات التفاؤل المسلمين لما فتحوا بعض الحصون القريبة من غرناطة وعادوا ظافرين، وحاول أبو عبد الله الصغير استعادة ثغر المنكب لإعادة الصلة مع شواطئ المغرب، ولكنه عاد لما علم أن فرديناند عاد إلى مرج غرناطة بعد أن أفزعته الثورات، التي كان آخرها ثورة وادي آش [157].

سافر فرديناند بجيش تراوح ما بين 50 – 80 ألفاً، مع مدافع وعدد ضخمة وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في 12 جمادي الثاني سنة 896هـ/ 23 نيسان (إبريل) سنة 1491م، واتلف الحقول والزروع والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من ملك تليد، يحيط بها العدو كالموج من كل جهاتها. ولقد كان دفاع غرناطة من أمجد ما عُرف في تاريخ المدن المحصورة، والقواعد الذاهبة، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار على مدى أشهر، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة، فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة، يهاجمونه ويثخنونه في مواقعه، ويفسدون عليه خططه وتدابيره.. أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسية الأندلسية، التي لبثت قروناً ثمانية زاهرة خلال العصور الوسطى[158].

وقرر فارس عربي شجاع المقاومة والجهاد إلى آخر رمق ، وهو موسى بن أبي غسان ، ومن أقواله : " ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت مدافعاً عنه ، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين " ، وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضوان ، ومُحمد بن زائدة و وتولى الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون ، ولم تكن المعارك الجريئة التي كان يخوضها المسلمون عنوان أخير لفروسيتهم ولكنها لم تغني شيئاً حيث قطعت غرناطة عما حولها تماماً باستثناء طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير سييرا نيفادا ، فجلبت منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة [159].

وحل الشتاء، وقلت المؤن والذخائر، ودخل الوزير المسئول عن غرناطة (أبو القاسم عبد الملك) مجلس أبي عبد الله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة، والدفاع عبث لا يجدي ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان: (لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن) وأخيراً رأي ملك قشتالة أن يزحف على أسوار المدينة المحاصرة ، فخرج المسلمون إلى لقائه ، وكان القتال رائعاً ، ولكن مشاة المسلمين لم تصمد ، فأوصد المسلمون أبواب غرناطة ، وامتنعوا خلف أسوارها يلاقون تمزقهم وترفهم وملاذهم ، (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) [160] صدق الله العظيم ، لقد تنازعوا ففشلوا ، وها هي ريحهم – كيانهم وسلطانهم وسيادتهم وحكمهم .. – كل ذلك يضيع وينقضي.

استمر الحصار سبعة أشهر ، واشتد الجوع والحرمان والمرض ، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء ، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم : (لم تنضب كل مواردنا بعد .. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها) ، وكانت هذه الكلمات تخاطب يائسين قرروا المفاوضة والتسليم ، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك المليح والوزير يوسف بن كماشه الحضرمي في أوائل سنة 896هـ / تشرين الأول (أكتوبر) 1491م [161]

وعين فرناندو الكاثوليكي مذوبية في المفاوضة ، سكرتيره فرناندو دي تافرا وقائده غو نثالودي كوردبا ، وكان هذا الأخير خبيراً في الشؤون الإسلامية عارفاً باللغة العربية وكان مقر المفاوضات قرية جوريانة الحالية القريبة من غرناطة وأسفرت المفاوضات عن اشتراط سبعة وستين شرطاً [162].

واشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوا النصارى من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود وجاء في نفح الطيب : " وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين ، منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة

شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نص عليهم ، ومن هرب من أساري المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يُمنع ، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يُعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبي الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يُعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى أمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الذمة ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم يُعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومه ويضع خط يده ، ويقول المقري بعد هذا : " وأمثال هذا مما تركنا ذكره من الشروط"[163].

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان : " وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصارى في عهودهم ، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم ، ولما أنس فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم 29 نوفمبر مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب ، ولكن سوف نرى أن الأيمان والعهود لم تكن عند مالكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور " وهذا ما تنبأ

به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال : (اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها).وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه ، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير: (الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي ،وصاح من حوله على أثره: (الله أكبر ولا راد لقضاء الله) وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه[164].

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: (لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، وإن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والإنطاق والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف ، أما أنا فو الله لن أراه). ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كوره السباع) عابساً حزيناً ، فوصل داره، ولبس سلاحه، وسار على جواده مخترقاً شوارع غرناطة[165].

وعلى ضفة نهر شنيل قابل موسى بن أبي غسان سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر فطلبوا إليه أن يقف، وأن يعرف نفسه فلم يجب، بل وثب إلى وسطهم وانقض يثخن فيهم طعناً، وكانت ضرباته قاتلة، حتى أفنى معظمهم، غير أنه أصيب في النهاية بجرح أسقطه عن جواده، لكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره، وأخذ يجاهد عن نفسه، فلما رأي أن قواه قد نضبت، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه ارتد إلى ما ورائه بوثبة أخيرة، فسقط في مياه نهر شنيل ، فدفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق ، وتقول الرواية الأسبانية : إن بعض العرب المنتصرين في المعسكر الإسباني ، عرفوا جواده المقتول[166].

9- مراسم التسليم وخروج أبي عبد الله إلى فاس :-

في اليوم الموعود : ثاني ربيع الأول 897هـ / 2 يناير 1492م انطلقت من أبراج قصر الحمراء ثلاث طلقات مدفعية هي الإشارة المتفق عليها لتكون بداية انطلاق العسكر الأسباني من شنتفي ، وزحفهم صوب غرناطة ، ولقي أبو عبد الله بادي الأمر كردينال أسبانيا ضون بيدرو دي ميندوثا وبادل الأمير التحية ، وخلع أبي عبد الله خاتمه الذهبي من أصبعه إلى الكوندي دي تينديا الذي عين حاكما عسكرياً جديداً لغرناطة ، وفي 6 يناير 1492م دخلا الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة دخولاً رسمياً في احتفال باهر ، وبهذه المناسبة ثم تسريح ستمائة أسير مسيحي كانوا محبوسين في دهاليز تحت الأرض ، فخرج هؤلاء الأسرى ، وجمهور الغوغاء يتبعهم في موكب ، والكل يترنم بأناشيد دينية حماسية، وهكذا يسدل الستار عن آخر فصل من فصول المأساة [167].

أما الأمير عبد الله فقد ترك غرناطة متجهاً إلى أندرش في منطقة البشرات جنوب جبل الثلج (جبل شلير)[168]، واستقرار أبو عبد الله في هذا المكان لم يكن باعثاً على سرور الملكين الكاثوليكيين، بل كانا يرغبان في إقصائه وطرده نهائياً من الأندلس، تفادياً لأية ثورة محتملة، وإبعاد كل خطر يأتي من طرف المسلمين، وفي نفس الوقت كان الوزير يوسف بن كماشة الحضرمي يتجسس على الأمير عبد الله لصالح الملكين الكاثوليكيين ، وكان يتصل بهما سراً عن طريق أمين سرهما فرناندو دي ثافرا ويبلغه كل شئ عن تحركات أبي عبد الله، علاوة على هذا العمل المخل بالشرف والأمانة، نرى ابن كماشه الحضرمي يتفاوض مع الملكين حول بيع ممتلكات أبي عبد الله في البشرات، وذلك بدون علم ولا توكيل خاص من عاهله، وعندما علم أبو عبد الله ذهل من بيع ممتلكاته دون إذنه وكاد يفتك بأبن كماشه، وبمقتضى البيع ، خرج أبي عبد الله من البشرات في أواخر شهر ذي الحجة من عام 898هـ / أوائل أكتوبر 1493م ومن ميناء عذره ومعه أولاده ووالدته وأخته وحاشيته متجهين صوب المغرب[169].

وركب معه كثير من المسلمين، ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بميناء مليلة[170]، ثم أرتحل أبو عبد الله إلى مدينة فاس، ويقول المقري عنه في فاس (ومازال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل المانح المانع، لا إله إلا هو)[171] وبقي مقيماً في فاس حتى وفاته عام 924هـ / 1518 م أو بعدها في ظل بني وطاس[172].

تلت المأساة محن أخرى قاساها مسلموا الأندلس، حتى قضي على وجودهم البشري وعلى عقيدتهم وكل ما يتصل بهم، وتعرف هذه المحنة بمحنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش، حيث أحيط بالمسلمين بعد سقوط غرناطة من كل مكان وخاضوا معارك قدموا فيها التضحيات، سُبيت فيها نساؤهم وأولادهم ، بقوا وحدهم هناك مجردين من الوسائل، عزلا يذودون عن دينهم، رغم تقلبهم أحياناً، إلا أنهم أبيدوا في النهاية بصليبية عجفاء وحقد أسود[172] .

هوامش الفصل الخامس

1- أرجوحة: بلدة من ناحية – إقليم – جيان بالأندلس، وتقع شمال غربي مدينة جيان. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، حـ2 ص 815، ياقوت الحموي: معجم البلدان، حـ 1 ص144.

2- ابن الخطيب : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص42 ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، حـ 1 ص185 ، حـ2 ص 59- 60 ، المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1939م ، حـ 1 ص167 ، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص38 ، عبد القادر زمامه : أبو الوليد بن الأحمر ، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر الدار البيضاء 1978م ، ص20 .

3- عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين ، ص187 ، كان موقعها يميزها بحصانة بالغة لا تجاريها قاعدة أخرى حيث تقوم في سهل فسيح البقاع ويشرف على السهل تل عال امتد نحو الجنوب الغربي لجبل الثلج

، وكان يفصل تلال الحمراء عن بقية جبل الثلج خانق ، فأقام عليه بنو الأحمر قنطرة وأجروا عليها الماء المنحدر من أعالي جبل الثلج ، وبذلك أصبح التل في وفرة من المال وأمكن أن تبني عليه قصبة منيعة وقصور جميلة ، ويشق غرناطة نهر قلوم ، وبها شجر الزيتون .انظر . عبد الواحد المراكشي : مصر سابق ، ص187 – 188 ، القز ويني : أثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ص547 . ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص22 – 23 .

4- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص40 ، عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين، ص188 ، عبد القادر زمامه : مرجع سابق ص19 .

5- وادي أش:وهي مدينة متوسطة المقدار لها أسوار محدقة ومطاسب ، ومياه متدفقة ولها نهر صغير دائم الجريان ومنها إلي قرية دشمة وإلي قري أخري صغيرة ومنها إلي مدينة غرناطة ، أنظر الإدريسي :مصدر سابق ، ج2 ص567.

6- أبن خلدون : العبرم7 ص197 ،محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص40

7- عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، ص188 ، غبد القادر زمامة : مرجع سابق ، ص21 .

8- عباده كحاله : مرجع سابق ، ص269 .

9 - محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، 42 – 43 ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص48

10- مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد شنب ، الجزائر 1920م ، ص72 ، ظهر مؤلف هذا الكتاب بعد ذلك وهو لابن أبي زرع ، ابن خلدون : العبر م7 ص190 ، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص43 .

11 -ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص48 ، الإحاطة ، حـ2 ص65 .

12-ابن خلدون : العبر م7 ص190 ، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص44

13- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص44 – 45 .

14- بنو مرين من قبائل زناته ، كان موطنهم الأول بلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة ، وكانوا في طاعة الموحدين ، فلما كانت هزيمة العقاب عام 609هـ / 1212 م وضعف أمر الموحدين ، بدأ نجم المرينيين بالظهور ، وبرز فيهم أبو محمد عبد الحق بن محيو المريني الذي تنسب الدولة إليه أحياناً فيقال الدولة المرينية العبد الحقية ، واستمر نجم المرينين بالظهور ونجم الموحدين بالأفول حتى استولى بنو مرين على أمصار المغرب الرئيسة كمراكش وسلا والرباط وفاس وغيرها ، وانتهت محاولات فلول الموحدين نهائياً بمقتل أبي دبوس عام 668هـ / 1275م على يد يعقوب المريني ، واستقر المرينيون المغرب الأقصى وامتدت حدودهم في مدد كثيرة حيث شملت المغرب الإسلامي كله في عهد أبي الحسن المريني ، ولكن سرعان ما تراجع وأصبح في المغرب ثلاث دول ، المرينية بالمغرب الأقصى ، والزيانية بالمغرب الأوسط ، والحفصية بالمغرب الأدنى ، وقامت علاقات متشابكة بين للتصافي والتعاون من جهة ، والحروب والفتن من جهة أخرى ، واستمرت الدولة المرينية إلى أواسط القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حيث خلفهم بني وطاس .انظر عطا أبو رية ، اليهود في بلاد المغرب الأقصى ، ص37 – 42 ، ابن الأحمر : أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة بيروت 1976م ، ص67 .

15- مجهول : الذخيرة السنيه ، ص112 ، محمود مقديش : مصدر سابق ، حـ 1 ص522 محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص47 – 48 .

16- ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 47، مجهول : الذخيرة السنية ، ص125 ، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص48 – 49 .

17- مجهول: الذخيرة السنية، ص127.

18- لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأن
يمزق الدهر حتماً كل سابغة إذا نبت مشر فيات وخرصان
أعندكم نبأ من أهل الأندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان

أنظر المقري : أزهار الرياض ، حـ 1 ص47 – 50

19- ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص60 ، الإحاطة ، حـ 2 ص65

20- ابن الخطيب اللمحة البدرية، ص50 ، الإحاطة حـ 2 ص66 .

21- محمود مقديش: مصدر سابق، حـ 1 ص522، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص57 ، ولكن ابن خلدون يقول أن السلطان أرسل الجند مع ولده منديل، انظر العبر م7 ص119 ، ولكن أقرت أغلب المصادر جواز أبي يوسف للأندلس .

22- ينتسب الحفصيون إلى شيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي من هنتاته أعظم قبائل مصمودة ، ويعتبر هذا الشيخ من مؤسسي دولة الموحدين . بما كان له من سابقة في الجهاد مع الموحدين ، وقد نال أبناؤه من بعده مكانة عظيمة في الدولة الموحدية ، وتقلبوا في مناصب الإمارة في المغرب والأندلس ، ويعتبر أبو زكريا المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية بتونس في رجب 625هـ / 1227م ومن الأسباب التي دفعت أبا زكريا إلى الإستقلال بإفريقية عن الدولة الموحدية ما رآه من ضعف الموحدين ، وما أرتكبه المأمون من قتل الموحدين في مراكش ، ومن طعن في عصمة المهدي وتغير رسوم الدعوة الموحدية ، وقد حكم الحفصيون في إفريقية زهاء ثلاث قرون ونصف . انظر الزركشي : تاريخ الدولتين ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ، 1966م ص 21 – 23 .

23- تنسب هذه الدولة إلى بني عبد الواد وهم بطن من بطون زناتة وهؤلاء كانوا يحيون حياة التنقل والترحال يرتادون صحراء المغرب الأوسط ، وقد قاوم بني عبد الواد الموحدين في أول الأمر ، ولكنهم أصبحوا من أخلص حلفائهم في المغرب الأوسط ، واستقروا نتيجة للإقطاعات التي منحها لهم الموحدون في نواحي تلمسان وبمرور الوقت استغل شأن بني عبد الواد ، وساعد على ذلك الضعف الذي مني به الموحدون ، حتى إذا جاءت عام 633هـ / 1235م تولى يغمراسن بن زيان أمر بني عبد الواد ، فأعلن الاستقلال في المغرب الأوسط عن دولة الموحدين ، وخاض يغمراسن بن زيان حروباً كثيرة ضد الموحدين والمرينين والحفصين حتى توفى عام 681هـ / 1282م .

انظر ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر 1968م ، ص125-127 .

24- الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة جمال بدوي ، دار ليبيا 1966م ، ص316 .

25- ابن خلدون : العبر ، م7 ص191 ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص313 السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص19 .

26- ابن خلدون : العبر م7 ص191

27- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص313 .

28- نفس المصدر والصفحة ، الذخيرة السنية، ص 164 .

29- ابن خلدون : العبر م7 ، ص191 ، السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص19 .

30- ابن خلدون : العبر م7 ص192 .

31- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص314 .

32- مجهول : الذخيرة السنية ، ص166 ، ابن خلدون : العبر ، م7 ص192 .

33- ابن خلدون : العبر ، م7 ص192 ، ويرى ابن قنفذ أن عبور أبي يوسف إلى الأندلس كان في عام 675هـ / 1276م انظر الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد النيفر ، تونس 1978م ، ص134 .

34- ابن خلدون : العبر ، م7 ص192 ، السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص20 .

35- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص313 .

36- ابن خلدون : العبر ، م7 ص192 .

37- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص315 .

38- ابن خلدون : العبر ، م7 ص192

39- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، حـ 1 ص565 .

40- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص315 ، ابن خلدون : العبر ، م7 ص192 – 193 ، السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص20 .

41- ابن خلدون : العبر ،م7 ص193 .

42- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص100 ، محمد كامل شبانه : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، لجنة البيان العربي القاهرة 1969م ص28. ابن الخطيب، الإحاطة حـ 1 ص565 .
43- ابن الخطيب: الإحاطة، حـ 1 ص565، محمد كامل شبانه: مرجع سابق، ص28 .
44- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص318 .
45- ابن خلدون: العبر م7 ، ص193 .
46- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص316
47- نفس المصدر، ص321، ابن خلدون : العبر ، م7 ص193 .
48- ابن خلدون: العبر م7 ص193 – 194 ، مجهول : الذخيرة السنية ، ص99 .
49- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص318 .
50- ابن خلدون : العبر ، م7 ص195 – 196 ، مجهول : الحلل الموشية ، ص147 ، السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص22 .
51- ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ 1 ص565 .
52- مجهول: الحلل الموشية، ص148 .
53- ابن خلدون: العبر، م7 ص196 .
54- ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ1 ص565 .
55- ابن خلدزن : العبر ، م7 ص196 .
56- السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص23 .
57- ابن خلدون : العبر ، م7 ص197 .
58- نفس المصدر والصفحة .
59- ابن خلدون : العبر ، م7 ص197 – 198 ، السلاوي : الاستقصاء حـ 2 ص24 .
60- ابن خلدون : العبر ، م7 ص198 .
61- نفس المصدر ، ص200 .
62- نفس المصدر والصفحة .
63- السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص24 .
64- ابن خلدون : العبر ، م7 ص201 – 202 .

65- نفس المصدر والصفحة .
66- السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص24 .
67- ابن خلدون : العبر ، م7 ص202
68- السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص25 .
69- ابن خلدون : العبر ، م7 ص204 ، السلاوي : الاستقصاء ،حـ 2 ص27
70- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص103 .
71- ابن خلدون: العبر م7، ص205، مجهول: الحلل الموشية، ص147
72- العبر ، م7 ص205 - 206 .
73- ابن خلدون : العبر م7 ص205 – 206 .
74- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص105 .
75- ابن خلدون : العبر م7 ص207 – 208 ، مجهول : الحلل الموشية ، ص148 .
76- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص350 .
77- نفس المصدر ، ص341 ، 342 ، السلاوي : الاستقصاء حـ 2 ص30
78- ابن خلدون : العبر ، م7ص208 .
79- نفس المصدر والصفحة
80- السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص30
81- العبر ،م7 ص208 .
82- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص358 – 359، ابن خلدون: العبر م6 ص209 – 210
83- السلاوي : الاستقصاء :، حـ 2 ص30 – 31 .
84- الأنيس المطرب ، ص359 .
85- نفس المصدر ، ص362 – 363 .
86- نفس المصدر ، ص373 .
87- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، حـ 1 ص33
88- مجهول : الحلل الموشية ، ص148 ، ابن الأحمر : رو ـة النسرين ، مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة ا ول العربية ، ورقه 7 .

89- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص108
90- الحميري: صفة جزيرة الأندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال، ص175 .
91- ابن خلدون: العبر م7 ص366. محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص106 – 107 .
92- أحمد مختار العبادي: فترة مضطربة في تاريخ غرناطة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م827 ، 1959 – 1960م ص48 علي محمد الصلابي: مرجع سابق، ص438 .
93- ابن خلدون: العبر، م7 ص486. دار الفكر بيروت 1981 م
94- ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ 2 ص16 ، 38 . عبد الرحمن علي الحجي: مرجع سابق ، ص540 .
95- محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ، ص113 .
96- الحسن الوزان : وصف إفريقية، جـ 1 ص317 – 318 ، ابن خلدون: العبر، دار الفكر م7 ص،303 السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية بيروت 1969م ، ص315 – 316.
97- ابن خلدون : العبر طبع دار الفكر م7 ص308.
98- تطوان : مدينة صغيرة بناها قدامى الأفارقة على مسافة سبعة فراسخ من سبتة في اتجاه الشرق، في المكان المسمى مصب تطاوين، وتبعد فرسخاً واحد عن شاطئ البحر، وكان العرب يجهزون منها السفن لغزو الشواطئ المسيحية، انظر الحسن الوزان: وصف إفريقية حـ 1 ص318 – 319 ، مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمة محمد زنبير، محمد يحيى وآخرون دار المعرفة المغرب 1989 ، حـ2 ص222 . إذاً تطوان مدينة عتيقة ولم تبنى بل من المحتمل أن يكون أبو ثابت عامر قام بتجديدها وتحصينها ولكن نجد ابن خلدون يشير إلى تطاوين التي أسسها السلطان أبي الربيع .انظر العبر دار الفكر م7 ص314.
99- محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ؛ ص113 – 114 .
100- ابن خلدون: العبر، طبع دار الفكر م7 ص313 – 314 .
101- ابن الخطيب: الإحاطة، حـ 1 ص552 – 553 ، اللمحة البدرية ، ص67 – 68

102- ابن خلدون: العبر، طبع دار الفكر م7 ص317 ، ابن الخطيب : اللمحة ،ص72.
103- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي: البحرية الإسلامية، ص317.
104- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص115 – 116
105- ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص75 – 76 ، السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي: البحرية الإسلامية، ص318 – 319 .
106- تذهب الرواية الأسبانية إلى أن الأميرين ماتا موتة طبيعية في هذه المعركة ، الأول (بدرو) مات بالسكتة القلبية، والثاني (خوان) مات من الحر والعطش ، ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية، للمزيد عن هذا الرواية التاريخية، انظر ابن الخطيب: أعلام الأعلام، قسم الأندلس، ص234، السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية، ص320.
107- ابن خلدون : العبر ، حـ 1 ص249 – 250 ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص85 ، 86 ، الإحاطة ، حـ1 ص397 ، عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص541
108- ابن خلدون: العبر، حـ 7 ص263 – 264، 372 . محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص124 – 125 ، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص96 – 97 .
109- ابن خلدون: العبر، حـ 7، ص373، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص140 .
110- ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص130
111- ابن خلدون: العبر، م7 ص377 – 379 ، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص140 – 142 .
112- علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص441
113- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية ، ص323 .
114- تزوج أبو الحسن المريني احدي بنات السلطان يحيى الحفصي عام 330هـ / 914م ويروى أن العروس جاءت في حاشية كبيرة إلى ميناء غساسة بالقرب من ميناء مليلة ، ومنها أنتقلت إلى مدينة فاس ابن خلدون : العبر حـ 7 ص256

*ذكرت المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب بلغت مائتين ، انظر السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : البحرية الإسلامية ص325 .
115- ابن خلدون: العبر ، م7 ص261 .
116- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : البحرية الإسلامية ص324 – 325 – ابن خلدون : العبر ، م7 ص261 ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 94 .
117- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص325 . ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم المغرب تحقيق محمد الكتاني ، عبد العزيز الأهواني ، الدار البيضاء المغرب 1964 ، ص304 – 306 ، الإحاطة حـ 1 ص541 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 5 ص80 .
118- السيد عبد العزيز سالم : أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص325
119- ابن خلدون : العبر ،م7 ص261 – 262 ، السلاوي : الاستقصاء ، حـ 2 ص65 – 66 ، ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص106 ، محمد عبد الله عنان : نهايةو الأندلس ، ص127 – 128 . .
120- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص128 – 129 .
121- نقلا عن المقري : نفح الطيب ، حـ 5 ص12 .
122- الإحاطة ، حـ2 ص176 – 177
123- النباهي : المرقبة العليا فيمن تولى الفتيا، تحقيق ليفي بروفنسال ، المكتب التجاري بيروت ، ص146 – 147 . المقري : نفح الطيب ، حـ 5 ص387 . عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص545 – 546 .
124- نفح الطيب ، حـ 5 ص514 .
125- المقري : أزهار الرياض ، حـ 3 ص187 ، نفح الطيب ، حـ 5 ص516 ، 526 . عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص546 – 547
126- ابن خلدون التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة 1958 ، ص50 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 5 ص413 .
127- عبد الرحمن علي الحجي : مرجع سابق ، ص547 .

128- عطا أبو ريه : اليهود في المغرب الأقصى ، ص13 ، وللمزيد أنظر ابن مرزوق ماريا خسيوس ، الجزائر 1980م
129- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص357
130- الحسن الوزان : وصف إفريقية ، حـ 1 ص318 .
131- بعد وفاة السلطان أبي عنان الذي يعد آخر السلاطين الأقوياء في الدولة ، انتقلت السلطة الفعلية من يد السلاطين إلى يد الوزراء ، وكان ذلك يشكل خللا في الجهاز الحاكم للدولة ، لدرجة أنهم لم يستطيعوا الدفاع عن أرض الدولة أمام أطماع البرتغاليين ، فقام المغاربة بثورة ضد السلطان أبي سعيد عثمان المريني عام 824هـ / 1422م لعدم قيامه بالدفاع عن سبتة ، لذلك هلك هذا السلطان ومن معه ، وبقيت مملكة فاس ثماني سنوات بدون سلطان، والسلطة الفعلية في هذه الفترة بيد بني وطاس ، أي أن عثر علي ابن صغير لأبي سعيد من أم نصرانية فرت إلى تونس ليلة المذبحة التي راح فيها أباه، وكان هذا الطفل هو عبد الحق آخر ملوك بني مرين الذي قتله الشعب عندما اندلعت الثورة نتيجة قيام السلطان بتعين وزراء يهود وهم هارون وشاويل والحسين اليهودي قائد الشرطة، فاستغلوا مناصبهم، فكان ذلك نهاية للدولة المرينية ، عام 869هـ / 1465م، للمزيد أنظر، الحسن الوزان : وصف إفريقية، حـ 1 ص318، عطا أبو ريه : اليهود بالمغرب الأقصى ، ص38 – 39 .
132- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص131 – 132 .
133- ابن خلدون: التعريف، ص84 – 85 .
134- عباده كحاله: مرجع سابق، ص271.
135- نفس المرجع، ص272، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص165 ، السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص363 .
136- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص168 .
137- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية ص363 .

138- قلعة الصخرة : هي قاعد حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية في شمالي غربي مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب . انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص190 .
139- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص196
140- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص198 ، محمد عبده حتاملة : محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، الأردن 1977 ، ص21 .
141- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص200 .
142- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص365 ، محمد عبده حتاملة ، مرجع سابق ، ص23 – 24
143- محمد عبده حتاملة : مرجع سابق ص23 – 24 .
144- نفس المرجع ، ص27 ، السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : مرجع سابق ، ص366 .
145- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص204
146- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص204
147- نفس المرجع ، ص204 – 205
148- نقلا عن محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، ص210 – 211، محمد عبده حتاملة: مرجع سابق، ص34 – 38.
149- مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة نصر، نشر ميللر جوتين 1863 ، ص24 نقلا عن محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص213 .
150- محمد عبد حتاملة : مرجع سابق ، ص41 – 42
151- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص219
152- نفس المرجع، ص221.
153- نفس المرجع، ص222 .
154- نفس المرجع، ص224
155- محمد عبده حتاملة : مرجع سابق ، ص42 .
156- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص234
157- نفس المرجع، ص235 .
158- نفس المرجع، ص237 .

159- محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص239 .
160- سورة الأنفال آية 47
161- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص240 – 241 محمد عبده حتاملة : مرجع سابق ، ص53 – 54 .
162- محمد عبده حتاملة : مرجع سابق ، ص55
163- المقري: نفح الطيب، حـ 4 ص50 – 529، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، حـ 1 ص50 – 72.
164- للمزيد حول هذه النصوص انظر محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص244 – 255 .
165- محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص255
166- نفس المرجع ، ص256 .
167- محمد عبده حتاملة : مرجع سابق ، ض57 – 62 .
168- جبل شُكير (الثلج) يتكون من عدة حصون منها حصن خريره وحصن ذلر وبه من الكمثري كل عجيبة ويكون منها وزن الحبة الواحدة رطل أندلس. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، حـ 2 ص567 .
169- محمد عبده حتاملة: مرجع سابق، ص62 – 69 .
170- مليلة: مدينة جميلة ذات سور منيع على البحر ولها زراعات كثيرة ويحيط بها قبائل البربر يطون بمطوية. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق حـ 2 ص533 .
171- أزهار الرياض، حـ 1 ص67
172- عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص573 .

المصادر والمراجع العربية

المصادر والمراجع العربية

أولاً : المصادر العربية :-
1- القرآن الكريم.
2- ابن الآبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت 658هـ / 1260م).
- التكملة لكتاب الصلة، نشر السيد عزت العطار الحسيني القاهرة 1956.
- الحلة السيراء ،تحقيق حسين مؤنس ، دار المعرف مصر 1963
3- ابن الأثير: محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ / 1233م).
- الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت 1968 .
4- الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز الشريف (ت 558هـ / 1162م).
- نزهة المشتاق في أختراق الآفلق ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1994.
5- ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت 807هـ / 404م)
- أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن ، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة بيروت 1976.
- روضة انسرين في تاريخ دولة بني مرين ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة تاريخ 1668م .
6- البيذق : أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت 6هـ / 12م) .
- أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس 1928م
7- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 587هـ / 1191م)
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ، المكتبة الأندلسية ، الدار المصرية للنشر 1966م .
8- البلاذري : أحمد بن يحي بن جابر (ت 279هـ / 892م)

- فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1956.
9- البكري : أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ / 1063م).
- جغرافية الأندلس وأوربا ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، دار النشر بيروت 1967 .
10- ابن حزم: الأندلسي (ت 456هـ / 1063)
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف مصر 1962.
11- الحسن الوزان: الفاسي المعروف بليون الأفريقي (ت 957هـ / 1550م).
- وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي، محمد زنبير، دار الغرب الإسلامي بيروت 1984
12- الحميري: محمد عبد المنعم (تمام جمعه 866هـ / 1463م).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس ، مكتبة لبنان 1980. ونسخة أخرى نشر ليفي بروفنسال القاهرة 1937
13- ابن حماد الصنهاجي: أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى (ت 626هـ / 1230م).
- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول أحمد البدوي ، المؤسسة الوطنية الجزائر 1984 .
14- ابن حيان: أبو مروان حيان خلف بن حسين (ت 469هـ / 1076م)
- المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق ملشور أنطونيو باريس1937.
- المقتبس في أخبار الاندلس، تحقيق بدرو شالميتا، مدريد 1979
- المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق محمود علي مكي دار الكتاب العربي بيروت 1973 .
- المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق محمود علي مكي المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة 1971 .
15- الحميدي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت 488هـ/ 1095م).

المصادر والمراجع العربية

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المكتبة الأندلسية الدار المصرية للنشر القاهرة 1966.

16- ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني (ت 776هـ / 1374 م)

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق محمد الكتاني أحمد مختار العبادي، الدار البيضاء المغرب 1964 ، حـ 2 خاص بالمغرب.
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1973.
- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية ، دار الآفاق الجديدة بيروت 1978 .
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق ليفي بروفنسال بيروت 1956 الجزء الثالث الخاص بالأندلس.

17- ابن خردزابه: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/ 932م).

- المسالك والممالك ليدن 1889.

18- الخشني: أبو عبد الله حمد بن حارث بن أسد (ت 361هـ/ 971م).

- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1372هـ.

19- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ / 1405م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة، القاهرة 1958 .
- رحلة ابن خلدون غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1958 .

20- ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الأشبيلي (ت 535هـ/ 1134م).

- قلائد العقبان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسن يوسف خربوش، مكتبة المنار الأردن 1989 .

21- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد (ت 681هـ / 1282م)

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1968 .
22- ابن أبي دينار: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت أواخر القرن11هـ/ 17م).
- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس 1993 .
23- الداو داري : ابن عبد الله بن ايبك (ت 736هـ/ 1376م).
- كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، نشر تحت عنوان ، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة 1961 .
24- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1380م).
- العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت 1960م.
25- ابن رسته:
- الأعلاق النفيسة، لندن 1881 .
26- الرقيق القيرواني: إبراهيم بن القاسم (ت في القرن 5هـ/ 11م)
- فتح إفريقية والمغرب ، تحقيق المنجي ألكعبي، تونس 1968 .
27- الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت 894هـ / 1488م)
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس 1966 .
28- الزمخشري: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت 538هـ / 1143م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، دار الفكر للطباعة والنشر القاهرة 1977 .
29- ابن أبي زرع : أبو الحسن بن عبد الله الفاسي (720هـ / 1320م).
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فأس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1973 .
30- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/ 1505م)
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصر 1327هـ.

المصادر والمراجع العربية

31- ابن السراج: محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت 1149هـ / 1736م).
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي 1984م .
32- السلاوي : أحمد بن خالد الأنصاري (ت 1315هـ / 1897م)
- الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1954 ، نسخه أخرى طبع مصر
33- الشنتريني : علي بسام .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب تونس ليبيا 1979 .
34- الشيرزي : عبد الرحمن بن نصر (ت 589هـ / 1193م)
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العريني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1946 .
35- الشافعي: أبي عبد الله محمد بن إدريس (ت 204هـ / 819م).
- الأم، الدار العربية للتأليف والترجمة القاهرة.
36- الضبي: أبو جعفر أحمد بن يحي القرطبي (ت 599هـ/ 1203م).
- بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس ، مدريد 1884 .
37- الطبري: أبو جعفر محمد بن جريس (ت 310هـ / 923م).
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر 1970م.
- جامع البيان في تفسير القرآ_ _لان 1327هـ.
38- ابن عذاري: محمد بن عذاري المراكشي (ت القرن 8هـ/ 14م).
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. سي كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب بيروت 1983.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس قسم الموحدين.
39- العذري: أحمد بن عمر بن شمس المعروف بأبن اللائي (ت 478هـ/ 988م).
- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك ، نشر عبد العزيز الأهواني مدريد 1965 .

40- الأمير عبد الله : بن زيري الصنهاجي (ت 473هـ / 1090م)
- مذكراته ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعرف مصر 1955 .
41- ابن غالب: محمد بن أيوب (من أهل القرن 6هـ/ 12م).
- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها لطفي عبد البديع مجلة معهد المخطوطات مدريد 1956 .
42-ابن الفرضي: أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي (ت 403هـ/ 1012م).
- تاريخ علماء الأندلس، المكتبة الأندلسية، الدار العربية القاهرة 1966.
43- القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ / 1283م)
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت
44- قدامة بن جعفر : ابن زياد (ت 329هـ/ 940م).
- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق حسين الزبيدي، العراق وزارة الثقافة 1981 .
45- ابن قطان : علي بن محمد بن عبد الملك (ت 646هـ/ 1230م).
- نظم الجمان، تحقيق محمود مكي، الرباط 1964 .
46- ابن القوطية: أبو بكر محمد (ت 367هـ / 927م).
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله الصباغ، بيروت 1958
47- ابن القيم الجوزي: شمس الدين بن أبي بكر (ت 751هـ / 888م)
- أحكام أهل الذمة، علق على حواشيه طه عبد الرؤف سعد ، دار الكتب العلمية بيروت 1995 .
48- القرطبي : أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري (ت 761هـ / 1272م)
- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1967 .
49-ابن الكردبوس: أبو مروان عبد الملك التوزري (ت 681هـ / 1382م).
- الاكتفاء في أخبار الخلفاء، القسم الخاص بتاريخ الأندلس تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد 1968 .
50- مجهول:

المصادر والمراجع العربية

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد شنب الجزائر 1920 .

51- مجهول:
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مدريد 1867م

52- مجهول: (من أهل القرن 8هـ/ 14م).
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامه، دار الرشاد 1979 .

53- ابن مرزوق: محمد التلمساني (ت 781هـ/ 1379م).
- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم 645 ونسخه تحقيق، ماريا خسيوس الجزائر 1980 .

54- المراكشي: عبد الواحد بن علي (ت في القرن 7هـ / 13م).
- وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1992
- المغجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949، نسخه أخرى طبع، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر.

55- المكناسي : ابن غازي بن عبد الله محمد بن أحمد (ت 919هـ / 1513م)
- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عن الخزانة العامة بالرباط رقم (1686 تاريخ) ونسخه محققه تحت الطبع لدى المؤلف.

56- المقري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ / 1631م).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1968م .
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1939م

57- مقديش: محمود الصفاقسي (ت 1228هـ/ 1813م).
- نزهة الانظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواوي ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1988م .
58- ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي (ت 711هـ / 1311م)
- لسان العرب ، دار بيروت للطباعة والنشر 1374هـ .
59- المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت 945هـ / 1441م).
- اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطمين الخلفاء ، نشر جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1967 .
60- الماوردي : الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450هـ / 1058م)
- الأحكام السلطانية والولايات الإسلامية ، مؤسسة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1973م .
61- القاضي نعمان : ابن محمد بن حيون (ت 363هـ / 973م)
- المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي ، إبراهيم شبوح ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1997.
- افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1986 .
62- النباهي: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي (ت أواخر القرن 8هـ/ 14م) .
- المرقبة العليا فيمن تولى الفتيا، تحقيق ليفي بروفنسال، المكتب التجاري بيروت
63- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 677هـ/ 1278م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 24 ، تحقيق حسين نصار، عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1983 .
64- الونشريسي: أحمد بن يحي (ت 914هـ / 1508م).
- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981.

المصادر والمراجع العربية

65- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ / 1228م)
- معجم البلدان، دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ.
66- يحي بن أدم القرشي (ت 203هـ / 818م).
- الخراج، تحقيق حسين مؤنس ، دار الشروق القاهرة 1987.

ثانياً: المراجع العربية:-
1- إبراهيم القادري بو تشيش: (دكتور).
- أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة، منشورات عكاظ الرباط 1992 .
2- إبراهيم طرخان: (دكتور).
- المسلمون في أوربا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1968 .
3- أحمد مختار العبادي: (دكتور) .
- في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية إسكندرية
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة 1965 .
- فترة مضطربة في تاريخ غرناطة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد م7 ، 8 1959 – 1960 .
4- أدم متر:
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو ريده، القاهرة 1960 .
5- أحمد بدر: دكتور.
- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها . القاهرة بدون تاريخ
6- أومبرتو رنبسيتانو:
- النورمان وبنو زيري من الفتح النورماني لصقلية حتى وفاة روجير الثاني، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة م11 حـ 1 1949م .
7- الفرد بل:
- الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي. دار ليبيا 1966 .
8- أوليفيا ريمي:

- التجارة والتجار بالأندلس ، ترجمة فيصل عبد الله ، دار العبيكان، الرياض 2002م .

9- توماس أرنولد:
- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1958

10- جوزيف رينو :
- تاريخ غزوات العرب ، ترجمة شكيب أرسلان بيروت 1966 .

11- جمال الدين الشيال: دكتور
- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ، القاهرة 1965

12- الجيلاني :
- تاريخ الجزائر العام، الجزائر 1968.

13- حسين مؤنس: (دكتور).
- فجر الأندلس ، دار الكتب المصرية القاهرة 1959

14- حسن أحمد محمود: (دكتور).
- قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي القاهرة 1957 .
- تاريخ المغرب والأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة.

15- دوزي:
- تاريخ مسلمي أسبانيا ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف القاهرة 1963 .

16- ستانلي لينبول:
- العرب في أسبانيا، ترجمة علي الجارم ، دار المعرف القاهرة 1947 .

17- سامي زين العابدين حماد: (دكتور).
- أثر الإسلام والعلماء المسلمين في النهضة الأوربية، دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة 2003م

18- سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور).
- أوربا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية 1960.

19- السيد عبد العزيز سالم: (دكتور).
- تاريخ المغرب الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة أسكندرية

المصادر والمراجع العربية

- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، أسكندرية 1961.
- المغرب الكبير الجزء الثاني العصر الإسلامي ، أسكندرية 1966 .
- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة إسكندرية 1984.

20- السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية بيروت 1969 .

21- شكيب أرسلان:
- الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، فاس 1936 .

22- عبد القادر زمامه:
- أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الدار البيضاء 1978.

23- عبد الرحمن علي الحجي: (دكتور).
- التاريخ الأندلسي، دار القلم دمشق 1994 .

24- عطا أبو ريه : (دكتور).
- اليهود في ليبيا وتونس والجزائر، دار أتراك القاهرة 2005م .
- اليهود في المغرب الأقصى، دار الكلمة سوريا 1999م .

25- علي محمد الصلابي: (دكتور)
- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، دار المعرفة بيروت 2005م

26- عصمت عبد اللطيف دندوش: دكتورة.
- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1988 .

27- عز الدين موسى: (دكتور).
- الموحدون في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1991

28- عباده كحاله: (دكتور).
- المعُرب في تاريخ الأندلس والمغرب، القاهرة 1997 .

29- علي أحمد (دكتور)

- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، دار طلاس ، دمشق 1989

30- فتحية النبراوي : (دكتورة)
- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي القاهرة 2004م .

31- ليفي بروفنسال:
- تاريخ أسبانيا الإسلامية، ترجمة علي عبد الرؤف البمبي وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 2000م
- حضارة العرب في الأندلس، بيروت بدون تاريخ.
- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وآخرون، مكتبة نهضة مصر.

32- كرستوفر دوس:
- تكوين أوربا، ترجمة مصطفى محمد، القاهرة 1966

33- محمد عبد الله عنان:
- دولة الإسلام في الأندلس، قسم الموحدين مكتبة الخانجي القاهرة 1964.
- دولة الإسلام في الأندلس، دول الطوائف، مكتبة الخانجي القاهرة 1969 .
- دولة الإسلام في الأندلس، الدولة الأموية، مكتبة خانجي القاهرة 1967 .
- نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المستنصرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1966 .
- الآثار الأندلسية الباقية، مكتبة الخانجي القاهرة 1968 .

34- محمد عيسى الحريري: (دكتور)
- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم الكويت، 1985.

35- محمد كامل شبانه: (دكتور).
- يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، لجنة البيان العربي القاهرة 1969 .

المصادر والمراجع العربية

36- محمد عبد الهادي أبو ريدة: (دكتور).
- المرابطون وتاريخهم السياسي ، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة 1969.
37- مراجع عقيلة: (دكتور).
- سقوط دولة الموحدين، بنغازي ليبيا 1975 .
38- محمود إسماعيل: (دكتور).
- الأدارسة، مكتبة مدبولي القاهرة 1991.
39- محمد عبد الوهاب خلاف: (دكتور) .
- تاريخ القضاء في الأندلس، المؤسسة العربية الحديثة القاهرة 1992.
40- مصطفى الهروسي: (دكتور).
- المدرسة المالكية الأندلسية، المملكة المغربية 1997 .
41- هربرت فيشر :
- أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، دار المعارف مصر 1962.
42- يوسف أشباخ :
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي القاهرة 1958 .